21 متر مربع

رواية

مِفَكّ صَليبة

دِينا إبراهيم (روكا)

الكتـــــــاب: ٢١ متر مربع: مفك صليبة
اسم المؤلفــــة: دينا إبراهيم (روكا)
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: ريهام الغنام
الطبعـــــــة: أبريل 2021
رقـم الإيـــداع: 5986 / 2021
الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 372 - 8
الموقـــــــع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســـط البــــلد، القاهـــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com

dar__ibda3
ibda3-tp
dar__ibda3

21 متر مربع

رواية

مَفَكّ صَليبة

دِينا إبراهيم (روكا)

إبداع

إهداء

إلى من تلقوا الخيبات المتكررة بأذرعٍ مفتوحة، وتركوا للذنوب سبيلًا واسعًا لتشعب أرواحهم.

إلى الذات التي اجتازت الصِّعاب؛ في محاولةٍ لتكفير هذه الذنوب وطرد شياطينها.

وإلى تلك النفوس الراضية التي لا تزال تتمسك بالشَّعرة الفاصلة بين الصواب والخطأ.

مِفَكّ صَلِيْبَة

فتحت (أم طه) النافذة الكبيرة التي تتوسط منزلها المتواضع ليتسلل هواء الصباح العليل إلى أرجاء المكان، ثم نظرت إلى الساعة الخشبية قديمة الطراز المعلقة على الحائط المتصدع ذي الطلاء القديم بفعل قساوة الزمن، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، تنهدت طويلًا ثم اتجهت لتفتح درج خزانتها الصغيرة المستوية بجوار الباب، وأخرجت بطاقة التموين، فهي تحب اللحاق بالمخبز قبل الزحام مع جارتها شريكة الكفاح (أم فرحة) أو (غزال) كما تحب أن تناديها، فهي رشيقة كالغزال، فما من ذكرٍ يراها إلا ويغرق في جمالها، وما من عاقلٍ لمحها وصدق أن (فرحة) ابنة الحادية والعشرين عامًا، والعروس التي تم زفافها أمس هي ابنتها بالفعل.

تنفست في عمق، فهما مقدمتان على حربٍ لم يعلما الكثير عنها من أجل الحصول على الخبز، دلفت إلى مطبخها المكعب الصغير، تجذب شبكة الخبز المعلقة على أحد المسامير ثم خرجت إلى الباب، ترتدي حذاءها المهترئ من كثرة الاستخدام، سيجب عليها زيارة مُصلح الأحذية في المساء، ذكرت الله مرددة دعاء الخروج كعادتها، تلمست

أصابعها أماكن تلفٍ جديدة فوق بابها الخشبي كمعظم أبواب المبنى القديم الذي بالكاد يحمي سكانه ويتكئون عليه من مصائب الزمن لكن لا أحد منهم لديه ما يكفي ليكلف نفسه الاعتذار إلى أروقته المتصدعة بإعادة ترميمها، فتحت الباب دون استسلامٍ لضغوط الحياة منذ الصباح، وابتسمت متأكدة أن جارتها كفيلةٌ بإشراق نهارها بابتسامتها وخفة ظلها، أغلقت بابها بإحكام وانعقد حاجباها في تعجبٍ صريح عندما قوبلت بباب جارتها المفتوح، ترى هل أصابها الملل وقررت الذهاب من دونها اليوم خصوصًا وقد تزوجت ابنتها الوحيدة أمس لتتركه منفرجًا بتلك الطريقة؟

اقتربت من شقتها على مهل ثم نادت قائلة:

●أم فرحة.

انتي هنا ولا نزلتي من غيري ياختي؟!

أجابها الصمت، فمالت شفتاها إلى اليمين، وغرقت في تفكيرٍ عميق، هل تغلق الباب وتذهب للحاق بها أم تختطف نظرة لتتأكد أن كل شيءٍ على ما يرام؟

زفرت متحركة نحو الداخل، وقد غلبها فضولها، دفعت رأسها أولًا، تدور بعينيها حول المكان الشبه مظلم إلا من أشعة الشمس الصغيرة، تمردت على النوافذ المغلقة، فلمحت جسد جارتها الجالسة في منتصف الردهة، فهمست مستفسرة وقد دب القلق داخلها من حالتها الغريبة:

•يوه انتي قاعدة كده ليه يا أم فرحة؟!

فتحت الباب وتحركت أصابعها تلقائيًّا لتشعل الضوء لكنها ثبتت في مكانها وقد رجت الصدمة كيانها، لا تصدق أنها ترى جارتها جالسة أرضًا فوق دماءٍ سائلة من جسد رجلٍ ملقى أمامها، ويبدو لها جثة هامدة غارقة في دمائها.. صرخت حتى أيقظت قاطني المبنى لكنها لم تعد للواقع إلا حين بح صوتها وتوقف صراخها وأصابها فُتُور الشعور حتى خارت قواها وشعرت بأذرع، لا تعرف هوية مالكها، تجرها جرًّا إلى الخارج لتجلس على الدرج، كان جسدها ينتفض دون هوادة حينما راقبت جارهم في الطابق السفلي (الحاج محمد) الذي بدأ يجري اتصالًا بالشرطة، وتابعت في صمتٍ إجباريٍّ فرضته عليها أعصابها المنفلتة، كيف أخذ يتلو عليهم تفاصيل الجريمة ومكان الحادث حتى أغلق وهتف في الجميع المُحلق حول المكان كالحمام الزاجل، يأمرهم بعدم الدخول من باب المنزل كي لا يلطِّخ مسرح الجريمة وتفسد الأدلة كما طالبه الشرطي!

استسلمت (أم طه) لعبراتها أخيرًا ثم همست لتسأل سيدة بجوارها:

•هي راحت فين؟

•قاعدة جوا بس مش بترد على حد، شكلها مستنية البوليس يجي.

استكملت (أم طه) بكاءها المرير، ترثي حالها والحالة التي آلت إليها جارتها التي تعتبرها بمثابة شقيقتها، وبعد فترةٍ ليست قليلة،

انتبهت لوصول أفراد الشرطة المصرين على تفرقة الجمع للوصول إلى مكتشف الجريمة، وارتعبت حين أشارت كل الأصابع نحوها.

•ابعدولي كده ومحدش يمشي لحد ما استجوبكم كلكم!

هتف ضابط الشرطة الذي خرج بعد تفحصه الواقعة في الداخل مشيرًا إلى أحد العساكر بغلق المكان وتطويقه انتظارًا لوصول أفراد المعمل الجنائي ثم انتقلت عيناه الحادتان نحو (أم طه) استعدادًا لمعركة أخرى قادمة.

*****

وقفت (غزال) أمام النافذة الصغيرة، تعانق ببشرتها أشعة الشمس الحارقة، مستسلمة لدفء حرارتها مغمضة العينين، شاردة عن كل ما يدور حولها، كما لو كانت تلك النافذة الصغيرة هي بوابتها الآمنة للفرار، الفرار من كل ما حاق بها لعلها تجد ملجأها بعد كل ما قاسته طويلًا في هذا العالم القاسي، كاد أن يعيدها إلى الواقع صوت طقطقة أقدام المارة الجنونية وأصواتهم المزدحمة دون تمييز لوقع كلماتهم وسط كل هذا الصخب، ورغم ذلك كانوا في عالمهم وهي في عالمها.. الذي كلما التقيا لم تنل ما تستحق، اتسعت حدقتا عينيها من الفزع، وقبضة قوية تكاد تسحق رسغها أعادتها إلى واقعها المميت، وهذا الرجل يجذبها خلفه كالشاه التي تُجر إلى هلاكها متجاهلًا نبضاتها الصارخة جراء آلام وقوع رسغها تحت قبضته، حاولت مواكبة خطواته

المُتعجلة وصوته الغليظ يوبخها بلهجته الخاصة قائلًا:

•انتي لساكي هتقفي تتشمسي اهنه، هِمّي ورايا على مكتب الوكيل.

تحركت معه وقد بدا على ملامحها الفزع والتشتت حتى حينما مثلت أمام مكتب رئيس النيابة الجالس في كامل هيبته، يشاهدها في سكون، بل ازدادت تذبذباتها الداخلية وتفاقمت رهبتها حين حدجها بنظراته الثاقبة والمتفحصة لهيئتها، وكأنه ماسح ضوئي يخترق ما لا تخترقه العين المجردة كي يدونه في ركنٍ من أركان عقله حين تعمد المرور بنظره على أدق تفاصيل ملامحها مرورًا بوجهها ويديها المكبلتين وملابسها المتسخة الغير مهندمة، أمسك بطاقتها الشخصية بكفه الكبير، وأمعن النظر قائلًا في روتينية:

•اسمك ايه؟

بللت شفتيها، وقالت في صوتٍ مبحوح:

•غزال.

•اسمك بالكامل ياختي.

قال أمين الشرطة من خلفها في لهجةٍ ساخرة، فارتعشت شفتاها مستكملة:

•غزال محمد عطوة عثمان.

•عندك كام سنة؟

استمر رئيس النيابة في أسئلته الخالية من المشاعر دون أن يلقي

بنظره نحوها، فأخبرته هامسة:

•خمسة وتلاتين سنة.

أومأ وسمعته يتمتم ببعض الكلمات لسكرتير التحقيقات بجواره، أما هي فقد ظلت عيناها في حيرتها، تدور في فلك خاص بها حتى وهو يتجاهلها بمطالعة ملف القضية الملقى بإهمال أمامه، يقرأه في صمتٍ، وملامحه الساكنة لا تُفصح عما يدور في داخله قبل أن يتقوس فمه للأسفل موجهًا حديثه إليها في هدوءٍ مخيف بارد، بينما أشارت عيناه إلى شابٍّ نحيف، يرتدي بذلة رمادية حاملًا حقيبة سوداء فوق ساقيه، ويجلس في صمتٍ قائلًا:

•ده بلال عنتر.. المحامي اللي النيابة استدعته للدفاع عنك، طيب يا (غزال) مش ناوية تقولي قتلتي (نبيل) ليه؟

قذف سؤاله دون إطالة في الأحاديث الجانبية متطرقًا إلى صلب الموضوع على الفور.

•قتلت!

همست دون أن تعي ما يدور حولها!

بللت شفتيها، تشعر بجفاف حلقها بينما كانت عيناها مثبتتان على الحروف المحفورة أمامها، تقرأها دون استيعاب (عزمي نصر الله) ثم مررت بصرها في الحجرة كمن يبحث عن مخرج من هذا الكابوس الذي يعجز عقلها عن تفسيره! أغمضت عينيها علها تعود إلى واقعها

من جديد لكن حينما فتحتهما، شاهدت الكابوس أمامها بلا رحمة، اتسعت حدقتا عينيها على حالتهما، ترى وجوهًا أمامها وتستمع إلى أصواتهم لكنها لا تشعر بشيء، فالكلمات توجه إليها لكن عقلها لا يستطيع فك شفراتها، أجفلت عيناها، تحاول أن تسيطر على التخبط الذي تشعر به، فالسحابة الضبابية أمامها، لا تمنحها مجالًا للرؤية، تسارعت نبضاتها كما لو كانت في حلبة ملاكمة، تؤدي مباراة لن تنتهي سوى بضربةٍ قاضية، جذبت نفسًا عميقًا لتشعر باندفاع الدماء في شرايينها كبركانٍ على وشك الانفجار.

•ردي على الباشا.

قفز جسدها من مكانه فزعًا نتيجة لحدة نبرة (أمين الشرطة) المجاور لها، وأسرعت تلف ذراعيها حول جسدها بعينين حائرتين متوجسة كطفلٍ على وشك أن يتلقى ضربًا مبرحًا.

•بالراحة شوية!

طالب المحامي الخاص بها، والذي نطق لأول مرة، فضرب رئيس النيابة السطح الخشبي بكفه متجاهلًا تذمر (بلال) ثم قال مؤكدًا حين وجه إليها ابتسامة ماكرة:

•الحركات دي مش هتدخل علينا، وواضح انك ذكية يا (غزال) فيا ريت تسهلي الأمور على نفسك وعلينا.

التقطت أنفاسها في محاولةٍ لإخراج الرد من فمها والإنكار لكنها

وقفت كمن تلبسه فنان صامت، فقط تعبيراته الإيحائية، تعبر عن صدق انفعالاته قائلة:

•أنا.. أنا.. لا يمكن..

•(غزال).. قلت مش عايز كدب!

تساقطت عبراتها وانكمشت ملامحها حينما صاح (عزمي) وفي سرعة رصاصة تسابق الضوء، كان صوت بكائها يتسابق مع سقوط دموعها، عادت للخلف خطوتين في هلع عندما تحرك (أمين الشرطة) وكأنه على وشك صفعها، فأوقفه (عزمي) قائلًا:

•بلاش تدخلينا في المتاهات دي وتضيعي وقتك ووقتنا، اعترفي يا (غزال) وارتاحي.

تحشرج صوتها داخل صدرها رافضًا الخروج ومواجهة ما آلت إليه حياتها البائسة، كيف يمكنها تقبل الاتهام بإزهاق روح من مثل لها الحياة؟! ومن كان بمثابة النور وسط بقعة السواد المحيطة بها طوال حياتها؟!

شعرت بالجدران تتمايل وبالحجرة تنقلب رأسًا على عقب، وكأن عقلها قد تنبه لتوه لحقيقة رحيله عن العالم القاسي، فوقفت قبالة الجالسين من حولها وحيدة تائهة دونه، ارتعش ثغرها الصغير في غير تصديق، لقد تركها تواجه جنون العالم وهوسه من خلفه، تركها خاوية الروح، تواجه أصابع الاتهام التي تقتلها آلاف المرات كل ثانية،

صدح صوت (عزمي) مخترقًا قوقعتها الخاصة ليدفعها للحديث أكثر قائلًا:

•يعني مصرة على موقفك، أومال لو مش قابضين عليكي في مسرح الجريمة مع المجني عليه كنتي عملتي ايه؟!

زاد صوت بكائها المرهق والبائس من ترديد الحقيقة على مسامعهم دون جدوى لكنها همست في صوتٍ ضعيف متقطع قائلة:

•حرام عليكم، حرام.

•همم.

أجابها بهمهمته، فلقد اعتاد البكاء كل يوم حتى أصبح متبلد المشاعر، لا يميز بين التوسلات الحقيقية والزائفة.

كان رنين الهاتف عاليًا ليقطع الأجواء المحتدة داخل الغرفة بينما اتجه (عزمي) لرفع السماعة مجيبًا في خشونة محافظًا على ملامحه الثابتة:

•أيوه.. تمام يا (مجدي).

انتقل بصره نحو (غزال) بملامحه المبهمة مستطردًا:

•تقرير الطب الشرعي وصل، جميل هاته فورًا.

أغلق سماعة الهاتف ليطالعها أو ربما ظنت أنه يطالعها، فالدموع التي ترفض التوقف من عينيها، وضعت غشاوة، فصلت بينها وبين الرؤية.

رفعت طرف ثوبها لتجفف عبراتها ثم انتبهت إلى طرقات الباب التي

تلاها دخول أحد الرجال ليعطي رئيس النيابة بعض الأوراق، فبدأ بقراءة ورقة بيضاء كبيرة إلا أنه تلك المرة أخذ يتلوها على مسامع الجميع متعمدًا:

السيد الأستاذ/ رئيس نيابة (ثان الرمل).

بعد التحية بناءً على الإشارة إلينا في المحضر رقم «......» بشأن توقيع الكشف الطبي الظاهري على جثة المتوفي رحمه الله تعالى..

الاسم: نبيل السيد محمد ربيع

العمر: ٤٠ سنة

تاريخ الوفاة: ٢٠/ ٤/ ٢٠٢٠ الساعة ١:٣٠ صباحًا.

بعدما قمنا بالكشف الطبي الظاهري، وجدنا سبب الوفاة كما يلي:

«طعنة نافذة بالجانب الأيمن من الرقبة، أدت إلى قطع الوريد بعمق ٥ سم مما تسبب في الوفاة، وأداة القتل المستخدمة (آلة حادة).. (مِفَكّ صَلِيْبَةْ).. ١٥ملي.»

انتهى من قراءة التقرير ثم التفت يرمقها بنظرة أكثر إصرارًا ساخرًا:

- المفك اللي عليه بصماتك، واللي قتلتي بيه (نبيل) جوا بيتك.

تحركت رأسها نافية دون توقف، زاد نحيبها وعلت شهقاتها المتألمة فاقدة الأمل في أن يفهمها أحد، انحصرت أنفاسها داخل حلقها

وشعرت باختناق وصعوبة في جذب الأكسجين داخل رئتيها، فصارعت لتستنشق الهواء لكن دون جدوى، فانتهت جاثية وكل ما يجول في رأسها هذا التساؤل؛ كيف يمكن للجدران أن تتراقص بهذه السرعة؟! صوت ارتطامٍ قوي، علا فوق صوت صرخاتها الفجائية التي نبهت خلايا عقلها لعودة أنفاسها إلى جسدها الذي هوى ساقطًا فوق أرضية الحجرة، تعلق بصرها بالسقف فوقها رافضة الانتباه للرؤوس المُحلقة فوق رأسها واللطمات الضعيفة التي تصفق على وجنتيها، تشنجت أصابعها متشبثة أكثر بتلابيبها، متعجبة من رغبة أحدهم الأنانية في حرمانها من أمان وسكون قوقعتها.

•اثبت عندك لو سمحت ان المتهمة غير متزنة نفسيًّا.

هتف المحامي مذعورًا بجوارها.

•نعم، هو أي حد يعمل الحركتين دول يبقى مش متزن نفسيًّا؟! عيب يا مِتر، احنا مش جداد على المهنة.

•على الأقل تروح المستشفى، الست وشها بقى أزرق من قلة النفس! علا صوت رئيس النيابة والمحامي دون اكتراثٍ لما تشعر به إلا أنها لم تستطع تفسير حديثهما، انغلقت عيناها في بطءٍ وثباتٍ، نجحت من خلاله في الهرب من زحام صراعٍ نفسيٍّ، وضجيج الأفعال الهوجاء من حولها، استسلمت، فلم تعد راغبة في تفسير سبب صراخها وعدم قدرتها على إيقاف تلك الصرخات إلا أنها هربت من دوامة إلى دوامة

أخرى، وقد سرقتها دائرة الحيرة في محاولةٍ للعثور على إجاباتٍ لأسئلة حارقة أشدها ضراوةً هي؛ كيف انتهى بها الحال مذنبة، وهي لطالما كانت الضحية؟!

*****

في ليلة الأحد ١٩ / ٤ / ٢٠٢٠
اليوم الذي سبق الجريمة
الساعة ٩ مساءً..

ارتفعت أصوات الزغاريد داخل الحارة المزينة بالأضواء البراقة، وبعض أوراق الزينة زهيدة الثمن المعبرة عن شقاء وفقر سكانها، ساد الصخب فوق الأجواء الاحتفالية، وكل أفراد الحارة يتشاركون الفرحة كأنها فرحتهم بينما وقفت (غزال) تتوسط المشهد في بهجةٍ شديدة أمام ابنتها المرتدية ثوب الزفاف الفضفاض ثم احتضنتها في سعادةٍ بالغة، ومالت نحو أذنها لتحارب الضجيج بحديثها في صوتٍ عالٍ:

•مبروك يا كبدي، مبروك يا فرحة عمري.

تعددت قبلاتها الحنون فوق وجه ابنتها الشابة التي توشك على البكاء من جديد، فلأول مرة تبتعد عنها، فمنعتها والدتها ناهية:

•إياكي تعيطي، ابدئي حياتك الجديدة اللي اتمنتها ليكي طول عمري ببسمة وفرحة جميلة زيك، النهارده فرحتك وفرحتي والدموع

ملهاش مكان فيها.

لمست وجنتي فلذة كبدها في رقةٍ وحنو، أما عن قلب الأم، فقد كان مشتتًا بين الرقص والبكاء، فستحيا وحيدة في غياب ابنتها، بعد كل تلك السنوات التي قضتها (غزال) في محاربة الصعاب، ها هي تقف أمام اللحظة الحاسمة متخبطة حائرة، وكأنها تريد الانسحاب وإخفاء جوهرتها الثمينة عن العالم كله بين جدران قلبها، ابتلعت مشاعرها المرتعبة من القادم، فابنتها الوحيدة ستنتقل برفقة زوجها إلى إحدى دول الخليج غدًا، والطائرة التي ستقلع بهما في تمام الرابعة صباحًا ستقتلع معها جذور الرحمة لتتركها منبوذة كأكثر فرد متقاعس في قافلة، فتخلى عنه البقية.

أجفلت عائدة للواقع المرير حينما سمعت صوت (شريف) زوج ابنتها المرح الذي حاول نقل السيدتين إلى أجواء هادئة ثم تنهدت متمسكة بقرار التضحية من أجل رخاء ورغد حبيبتها، وإبعادها عن الخطر المتربص بهما.

•خد بالك عليها يا (شريف).. صونها واحميها وخليك سندها في غربتها، عيشوا حياتكم وخلوا الصلاح والمودة يعمروا ما بينكم.

•ما تقلقيش يا أمي.. (فرحة) في عينيا الاتنين.

أنهى جملته بطبع قبلة خفيفة فوق أنامل عروسه ليطمئنها ويطمئن قلب والدتها حتى قطع تلك اللحظة صوت صديقه المتحمس ليعلن عن

وقت المغادرة السابق لكنهم مجبرون كي يتمكن العروسان من الراحة قبل امتطاء الطائرة باكرًا.

•العربية وصلت يا عريس.

اهتزت (غزال) مع اهتزاز كتلة المشاعر المتصاعدة داخل صدرها كالدخان داخل المدخنة لكنها أخفتها أسفل زغاريدها العالية حتى غادرت ابنتها العروس برفقة زوجها ثم وقفت بقلبٍ مُثقل، تلوح لهما وتراقب ابتعاد السيارة على مهل، أطلقت سراح عبراتها أخيرًا وفاضت معها مشاعر الفقدان والأسى حتى زاغت عيناها وتاه مجال رؤيتها، فوقفت حائرة بفمٍ مرتعش باكية كطفلةٍ صغيرة، أفلتت والدتها أصابعها وضاعت وسط الزحام، استسلمت لمواساة الأذرع المتلقفة لها من سيدات الحارة وجيرانها الأعزاء، علا شعور الاهتزاز داخل صدرها، وتلقائيًّا اهتز كيانها مع كل اهتزازه صادرة من هاتفها الصغير الصامت، والمخبأ بعناية بين طيات عباءتها السوداء، تحركت مع (أم طه) جارتها العزيزة التي أصرت على إيصالها بنفسها إلى منزلها المتواضع الصغير، والمكون من حجرتين وصالة - لاستقبال الضيوف المتمثلين في (أم طه) وأبنائها - مع حمام صغير ومطبخ أصغر.

•أمانة عليكي يا (أم فرحة) ما تكسري قلوبنا بعياطك ده، كلها كام شهر وتنزل وتشوفك وترجع لحضنك.

•كتر خيرك يا (أم طه).. ما تقلقيش عليا، روحي انتي في حضن ولادك، سامعة صوت عياط بنتك الصغيرة من هنا.

أشارت نحو الباب الملاصق لها، فأومأت جارتها موافقة رغم قولها:

•ما تقلقيش أختها الكبيرة معاها.

ومع ذلك دفعتها (غزال) للمغادرة مؤكدة أنها بخير ثم رافقتها حتى أغلقت الباب خلفها بإحكام، أخرجت حينئذ هاتفها الذي لم يتوقف عن الرنين منذ ساعات، وراقبت اسم المتصل الذي لم تكن تتوقع أن يصيب اسمه قلبها بكل هذا الثقل والبؤس المتربع داخله.

*****

وقفت (فرحة) في غرفة نومها داخل منزل الزوجية الذي يحتوي على أثاثٍ أنيق ثم رفعت رأسها في شموخٍ لتلتقط شهيقًا عميقًا، وقد رغبت في احتضان والدتها لأنها حرصت على تلبية مطالب أهل زوجها وتصدت لمحاولاتهم البائسة في إفشال تلك الزيجة بسبب اعتراضهم على حالتها الاجتماعية البسيطة، التفت حول الغرفة تتفحص طاولة الزينة المجهزة بكل ما تشتهيه فتاة وابتسمت في فخر، لقد فعلت أمها كل هذا لتحيا حياة رغدة قبل سفرها مباشرةً لممارسة عملها الجديد، والذي وفره لها زوجها في الخارج للعمل معه، كان يمكنها المساهمة بالقليل ومطالبتهما بإتمام باقي التجهيزات من خلال عملهما، ولن تنكر أن هذا ما تمنت أن تفعله والدتها وجاهرت به لها ولزوجها

مدركة أنها إن صمتت على تضحيتها سيأكلها ضميرها حية، وكعادتها المضحية أبت والدتها أن تهز شأنها أمام أسرته المترفعة، ولن تنكر أن (شريف) قد حاول تخفيف وطأة المطالب المتراكمة حتى أنها كادت تتخلى عن فكرة الزواج نهائيًّا لما حدث من مواقف قاتلة متعمدة من قبل ذويه تجاه والدتها لكنها وقفت عاجزة أمام أُمها العنيدة.

انتبهت لصوت رحيل ما تبقى من رجال عند باب المنزل، ومسها القلق والخوف الطفيف عندما انغلق الباب، شعرت بالخجل منتظرة انضمامه المتوقع إليها، وما هي إلا دقائق قليلة حتى انضم إليها محتضنًا إياها من الخلف هامسًا:

•مبروك يا غالية.

•هو أنا لسه هفضل غالية حتى بعد الجواز؟

همست رغم تجلي مؤشرات الخجل فوق وجهها الصغير ثم أطرقت لتخفي عنه خفقات قلبها الثائر بين ضلوعها الهشة لكنه تمرد واستدار ليقف أمامها وجهًا لوجهه مصرًّا على التحديق إلى عينيها الساحرتين قائلًا:

•ولو مكنتيش انتي الغالية يا فرحة العمر هتبقى مين غيرك؟

اقترب منها ليمحو المسافة الضئيلة الفاصلة بينهما ويضمها بين ذراعيه حينما حاول الانحناء ليلثم جانب وجهها متجاوزًا الارتعاش الخفيف الذي أصاب شفتها السفلية الناتج عن قربه المتلف لأعصابها

مستأنفًا همسه الناعم لها:

•بعد كل اللي مرينا بيه لازم تتأكدي انك غالية.

اهتزت ابتسامة صغيرة فوق وجهها الملون كثمرة الفراولة في موسم نضوجها مؤكدة كلماته بقولها:

•الصراحة مش مصدقة أن الجواز تم فعلًا، خصوصًا ان أختك ومامتك مش...

•لا أرجوكي في اللحظة دي لازم تنسي أهلي وأهلك وتركزي معايا أنا وحياتنا الجديدة مع بعض.

قاطع (شريف) حديثها ثم مال يشاكسها بملامسة أنفه لأنفها في حركةٍ لطيفة سينمائية، أطلقت رفرفة خفيفة داخلها، كانت كأجنحة سرب من الطيور المتخبطة في السماء، ابتعدت عنه تخفي الحمرة الزاحفة على محياها مستمرة في همسها المتلعثم:

•ماما.. دي ماما صعبانة عليا أوي، مش مصدقة اني هسافر واسيبها، هتوحشني جدًّا.

أعادها (شريف) بين ذراعيه رافضًا هروبها محبطًا بذلك فرصتها في الانفلات من لهيب مشاعره ثم قال:

•وبعدين... هو احنا هنقضي الليلة كلها كلام عن أهلي وأهلك، ثم ده مش وقت أشواق لأي حد في الدنيا غيري.

حركت عدستيها يمينًا ويسارًا في اضطرابٍ حقيقيٍّ، لا قدرة لها على

مجابهة نظراته أو التحديق إلى عينيه الثاقبتين متمتمة في اعتراضٍ واهن بخجلها الفطري:

•شريف!!

همهم بصوته الرخيم متعمدًا إشعال حواسها البكر:

•يا عيون شريف.

ابتلعت لعابها وسط صخب مشاعرها، وضجيج الدماء يطن داخل أذنيها، يكاد يمنع عنها صوته الخشن بفيض أشواقه، علت أنفاسها المضطربة وأغمضت عينيها في استسلامٍ تاركةً يده العابثة تتلمس طريقها فوق جِيدها ومنه إلى سائر جسدها، قبل أن يقاطعهما صوت طرقات تحارب لكسر هالة السحر المحيطة بهما.

•مين السخيف اللي بيخبط على عرسان في وقت زي ده؟!

هتف (شريف) في حنق.

•مش عارفة، شوف مين.

قالت في نبرةٍ متوترة، فازدرد ريقه والرغبة في عينيه تحارب لملاحقه أدق تفاصيلها الفاضحة لمشاعرها الجياشة، فاقترب خطوة ليخبرها قائلًا:

•ما تيجي نعمل نفسنا مش سامعين.

•(شريف) مش هينفع، افتح يمكن في حاجة مهمة.

تمتم ببعض الألفاظ الاعتراضية حين تحرك متذمرًا لفتح الباب

ورؤية هذا الزائر الأحمق الغير مرحب به إطلاقًا، فتح الباب ليحدق إلى الرجل ذي العينين الزائغتين والملامح المألوفة أمامه ثم قال متعجبًا حضوره:

•انت؟! هو في حاجة حصلت لـ (أم فرحة) ولا ايه؟!

بدا القلق على نهاية جملته، فابتسم الرجل حين دخل منزل الزوجين في أريحية مجيبًا في سخرية:

•(أم فرحة) كويسه أكتر من اللازم.

•مش فاهم.

•ما انا جاي مخصوص عشان أفهمك.

أخبره بطريقته الخبيثة تاركًا لعينيه حرية التجوال فوق تفاصيل المنزل، فقاطعه (شريف) المنزعج في نبرةٍ حازمة قائلًا:

•لا انجز، النهارده يوم فرحي لو انت مش واخد بالك.

•لا واخد بالي جدًا يا عريس، عشان كده مهانش عليا يتضحك عليك بالطريقة دي، وجاي أفتح عينك واوعيك.

•انت بتخرف بتقول ايه؟!

رفع هاتفه يعبث ببعض التطبيقات حتى وصل إلى مبتغاه، فغطت وجهه ابتسامه كريهة وقحة حينما فتح مقطع فيديو وثبته أمام وجه (شريف) الذي تبدلت ملامحه من الحيرة للاستنكار حتى استقرت الصدمة فوق تقاسيمه، فتصلب في مكانه يتابع المقاطع التي ستهدم

حياته وتقلبها رأسًا على عقب.

*****

غلبها فضولها حين تأخر زوجها، فتحركت (فرحة) بثوب زفافها الثقيل لترى ما يؤخره، فوجدته يقف مع صاحب الدكان التي عملت به والدتها بضعة شهور قبل الزفاف.

لمَ حضر؟!

تحركت مسرعة تظن الأسوأ في مجيئه، فربما والدتها ليست بخير، لكنها توقفت خلفهما في ذهول، لا تصدق الأصوات القبيحة والمخجلة المحمولة إلى أذنيها، اقتربت لتحاول معرفة حقيقة مشاهدة زوجها أحد المقاطع الإباحية في ليلة زفافهما، شعرت بالدماء تفور في عروقها وهمت بالصراخ في وجهيهما كي تقاطع حفل الخطيئة لكنها تجمدت خلف زوجها وتحجرت في مكانها كأعمدة الأساس، شحب وجهها وقد هربت الدماء من أوردتها معلقة بصرها فوق ملامح السيدة التي تتوسط شاشة الهاتف النقال، وكل ما يدور في عقلها المشتت؛ لماذا تشبه هذه العاهرة والدتها وقت الشباب و.......؟!!

لا..... استنكر عقلها المشتت تلك الظنون، فتحركت خطوتين على عجلة لتقترب من زوجها الباقي على موضعه والجاهل لوجودها خلفه، لا يزال غارقًا في صدمةٍ وصمتٍ مُخيف، تعمدت غلق جفونها وفتحها مرات عديدة أملًا في أن يشفق عليها القدر وتستيقظ من هذا

الكابوس لكن الحظ تخلى عنها تدريجيًّا مع وضوح الرؤية لها أكثر وأكثر، ارتعش جسدها وانهمرت دموعها الحارقة في بطءٍ قاتل، وقد هتك الخذلان قلبها، لا تصدق أن تلك العاهرة هي والدتها بالفعل!

*****

أغلق الشيطان - الذي بدا في هيئة إنسان - الهاتف معيدًا إياه داخل جيبه ثم أخرج ورقتين، موقع أدناهما اسم (غزال) ليزيد إشعال المحرقة التي أشعلها بين جدران المكان، وفي نفوس ساكنيه.

•ودي ديون عليها عشان تجوز بنتها، وطبعًا كله بالنصب.

لم يجبه أحدهما، لا يزالا غارقان في محنتهما، فاستكمل الخبيث حديثه قائلًا:

•كده أنا رضيت ضميري، والقرار بين إيديك.

أنهى جملته واستدار في رضا للمغادرة مغلقًا الباب خلفه بعد أن اختطف السلام والسكينة معه، وفجر المكان بفعلته، وصل سيارته ثم جلس داخلها سعيدًا منتشيًا بالخراب الذي حدث وسيحدث، وقد انطفأت بعض نيران الانتقام في صدره، فهو لن يسمح لأحد بالانتصار عليه وخداعه، خصوصًا امرأة بتاريخ أسود، ترتسم العفة!

•أنا هوريكي نتيجة اللعب بالنار.

صدح صوته داخل السيارة في حقدٍ ليفكر في النصف الثاني من الانتقام والنصيب الأعظم من الجائزة، أشعل بذلك محرك سيارته

متجهًا نحو الهدف.. (غزال).. فقد حان وقت تلقينها درسًا قاسيًا لتعود معه حيث مكانها الأصلي كعاهرة وضيعة تحت قدميه، ابتسم لنفسه ثم أخرج عقار (السعادة) الممنوع تداوله إلا في الأروقة المظلمة من الحارات، وابتلع منه قرصًا كاحتفالٍ مبكر باقترابه من تحقيق الغاية المنشودة بعد مرور كل هذه الشهور، رفع هاتفه مرة أخرى ودأب على إجراء اتصالٍ بها للمرة الألف هذا اليوم، فظل الرنين يطن في أذنه حتى انتهى بموت المكالمة دون مجيب.

•مصيرك ومضيتي عليه بنفسك.

تمتم لنفسه في حزم وكأنها تسمعه أثناء إشعاله لمحرك السيارة عازمًا على الذهاب مباشرةً نحو منزلها، وقد حسم عقله الأسود وقلبه الأكثر سوادًا الأمر.. فالليلة هو المنتصر والفائز، لا بد أن يحصد كل شيء.

*****

جلست (غزال) فوق أريكتها المتهالكة، تحدق في شرودٍ أمامها دون اكتراثٍ للظلام الدامس والصمت المطبق حولها، حاصرتها الأفكار والسيناريوهات المُحتملة وما قد يخبئه لها القدر، حاولت تحويل سلبية ظنونها وهوسها بالغيب، فمالت بأفكارها نحو (فرحة) وحياتها السعيدة القادمة، ظهرت ابتسامه على ثغرها موجهة إلى الفراغ أمامها، وقد سرق عقلها لحظات يستعيد بها كيف وقفت (فرحة) في تلك البقعة التي يتعلق بها بصرها متذمرة بشأن مقبض غرفتها

المخلوع منذ الأزل، وها هي تكاد تغادر المنزل، ولا تزال قطعة الحديد مفككة، حركت رأسها مرتين وكأنها تستعيد وعيها بالحياة البائسة التي التصقت بها دون اختيار لتتجه تلقائيًّا إلى زر الإضاءة ثم نحو درج المعدات، تعبث بين أغراضه بحثًا عن مبتغاها مقررة إصلاح ذلك المقبض، أخرجت (مفك صليبة) وذهبت في إصرارٍ نحو باب غرفة ابنتها، جثت أمام المقبض تحاول فحصه وتحليل علته للحظات، تتأكد من صحة اختيارها للمعدات ثم همت لإصلاحه، بعد فترةٍ طويلة من التركيز والمحاولات الصعبة، شتتها عن مهمتها صوت جرس الباب، فانكمشت ملامحها متسائلة عن هوية الحاضر لكنها سرعان ما توقعت أنها (أم طه) قد جاءت مشفقة عليها من الجلوس وحيدة في أولى ليالي فراق ابنتها، تحركت في خطواتٍ هادئة لتفتح الباب في سلاسة إلا أن عضلات جسدها تشنجت مع اتساع حدقتيها حين شاهدت الزائر أمام بابها، ظلت ثابتة في مكانها معلقة نظراتها بابتسامته التي طالما عشقتها لكنه يصر بأفعاله على نحت البغض داخلها، ازدادت ضربات قلبها المرتعبة هامسة:

- انت!!

*****

في منزل الزوجين، ظل كلاهما على وضعهما دون أي حركة، وكأن الصدمة قد ألجمت العقل واللسان بل حتى الأنفاس.. خرج (شريف)

من صدمته أولًا ثم انتقلت نظراته القاسية الحاقدة نحوها، فبادلته (فرحة) النظر في صمت فاقدة القدرة على الحديث، لا تزال غارقة في رعب ما عاصرته منذ قليل لكن الرعب الحقيقي بدأ حينما صفعها زوجها على حين غرة حتى طرحها أرضًا، انبسطت فوق الأرضية الصلبة ثم وضعت كفها المهتز فوق وجهها مصدومة من فعلته لكنه لم يعطها فرصة لإدراك ما حدث، فصاح متهمًا:

•بتضحكوا عليا انتي وامك، بتخدعوني وتستغفلوا طيبتي!

لم تجبه، تابعته فقط بنظراتها المذعورة، فاستطرد قائلًا في غضب:

•إيه مصدومة إني عرفت حقيقتكم، وان ربنا كبير حاسس بالغلبان اللي اتضرب على قفاه!!

•(شريف).. اسمعني ده أكيد سوء تفاهم.

قالت في وهنٍ مرتعدة، فأمسك خصلات شعرها هاتفًا في اشمئزازٍ، وقد تحول في وقتٍ قياسيٍّ من الفارس المغوار إلى وحشٍ مفترس قائلًا:

•سوء تفاهم؟! سوء تفاهم وانا شايف امك بعيني في حضن راجل بكل فجور!!

•ما تقولش كده عنها يا (شريف).

صرخت من بين دموعها، تشعر بالانهيار الوشيك لجسدها المُحطم حتى أنها لم تقوَ على الوقوف ومجابهة اتهاماته ليترك خصلاتها في عنفٍ ثم استقام بجذعه العلوي مزمجرًا في جنون:

•اخرسي ما تنطقيش اسمي على لسانك، أنا مش مصدق اني انخدعت فيكي وكنت فاكرك ملاك بجناحين نازل من السما، وفي الآخر طلعتي....

علت أنفاسه عاجزًا عن نطق الكلمة البذيئة، إنها لا تزال حاملة لاسمه بينما وضعت كفها فوق صدرها، تحاول السيطرة على شهقاتها مدافعةً في شراسة:

•والله العظيم عمري ما خدعتك.

•كفاية مش عايز أسمع صوتك، وانا اضمن منين انك مش ماشية على خطاها!

•أنا أشرف منك ومن العالم ده كله.

•دلوقتي حتى الشرف قدروا يزيفوه.

صمت ثم استطرد قهرًا ضاربًا صدره:

•منك لله زي ما كسرتي قلبي وفرحتي انتي وامك.

استطاعت الوقوف أخيرًا، وحاولت الاقتراب منه باكية لكنه كان يبتعد مع كل خطوة تتقدمها، فوقفت حائرة تقتلها نظرات الخيبة والخذلان في عينيه ثم قالت:

•أنا عمري ما اعمل كده، ازاي تفكر فيا بالطريقة دي؟!

•كفاية، بطلي ادعاء للبراءة والشرف، المستور انكشف وبان.

•شريف...

رفع كفه ليمنع حديثها، مغمض العينين، ملامحه منكمشة كأنه يوشك على الغثيان حتى بصق كلماته في نبرةٍ باردة استمدها من الجليد الذي يحيط بقلبه:

•انتي طالق.. طالق بالتلاتة!

اتسعت عيناها الزائغتان وتبعته حين غادر في خطواتٍ عنيفة إلى داخل غرفة النوم ليغيب بضع ثوانٍ، لم تكن كافية لتستفيق من صفعات القدر المتتالية قبل أن يخرج حاملًا حقيبة يدها الصغيرة ليأخذ منها أوراق سفره وتذكرة الطيران تحت مراقبتها ثم ألقاها في احتقارٍ قائلًا بلهجته الحادة:

•اطلعي برا.

اعتصرت أصابعها الحقيبة دون أن تصدر حركة واحدة منها تدل على الخروج، فتقدم منها صارخًا ليدفعها نحو الباب، ومنه إلى خارج المنزل مغلقًا بابه خلفها إلى الأبد.

وقفت (فرحة) ذليلة، وقد أذابها الحزن والحسرة في مشهدٍ يناقض معنى اسمها وثوب زفافها البراق، احتضنت حقيبتها وسط بكائها دون أن تدرك خطوتها التالية.

*****

•انت!

عندما طال تصلب (غزال) عند الباب دون أن يصدر منها أي رد

فعل، ابتسم متسائلًا في مكر:

•مش هتدخليني ولا ايه؟

لم تجب، فقرر الدخول مستغلًّا صدمتها، دخل منزلها الصغير ليفقدها الأمان، استمر في التقدم نحوها مستمتعًا برجوعها للخلف ليحاصر خطواتها ثم قال متهكمًا:

•لقيتك مش بتردي على التليفون، قلت أجي بنفسي أفكرك بالاتفاق اللي كان بينا.

•وجودك هنا ميصحش.

لم تستطع نطق حروف اسمه وكأن عقلها قد تاه عن شخصه، حملت نبرتها الذعر والتخبط المُثار داخل صدرها، فوقف في مكانه ناظرًا إلى الظلام من حولهما قبل أن ينفجر ضاحكًا على ما يراه مزحة سخيفة متسائلًا:

•وكان يصح انك تخلي بيا بعد ما عشمتيني يا غزال؟!

ظل يترنح نحوها مع حديثه دون توقف حتى اقتحم مساحتها الشخصية مزمجرًا في غضبٍ مكتوم، يزداد مع ازدياد صمتها قائلًا:

•ايه مبررك يا (غزال) الحُسن؟ بنتك وتجوزت وانتي ومش في بيتي ولا تحت طوعي، أفهم من كده انك رجعتي في كلامك؟

اتكأت على الحائط خلفها ثم أخبرته في صوتٍ مهزوز:

•أرجوك سيبني في حالي، اللي انت طالبه مني حرام ومش هقدر...

تأوهت (غزال) حين صفعها مانعًا إياها من أن تنهي جملتها ثم قبض على خصلات شعرها ساخرًا في جحود:

•حرام! انتي صدقتي نفسك؟ تعرفي ايه عن الحرام؟ دي حتى الفيديوهات تشهد عليكي!

اغرورقت عيناها بالدموع، وقد ألجمتها الصدمة، لا تتوقع منه كل هذا العنف والجحود، بعد كل هذا الحب الذي أغدقت به عليه.. وبعد كل هذه الشهور التي هامت فيها بخصاله الطيبة لكنها همست قائلة:

•حرام عليك، أنا مقدرش أعمل اللي انت عايزه مني!

تركها مبتعدًا عنها خطوة ثم رمقها من أعلاها إلى أسفلها في اشمئزازٍ، ولقد عكست عيناه روحًا قبيحة، لم ترها من قبل، فكأنها تراه للمرة الأولى ثم سمعته يدس سمومه في أذنها قائلًا:

•لا تقدري وهتعملي، اوعي تكوني فكراني عيل صغير هتضحكي عليه، لا مش أنا، واللي عايزه منك هاخده بمزاجك أو غصب عنك.

شعرت بالتخبط والخوف يتملكان حواسها متسائلة؛ منذ متى داهم السواد كيان الشخص القابع أمامها؟! متى تلبسه هذا الشيطان الرجيم وصار لا يملك قلبًا كي يحب أو يُحب؟! وكيف وقعت ضحية بين أصابعه؟!

أنهت أفكارها بقولها الخافت:

•انت ليه بتعمل كده؟! أنا بحبك.

اقتربت منه وقد أجبرت قدميها على التحرك بصعوبة، تحاول مناشدة الرحمة والشخص الذي طالما رسمته داخل رأسها، تركها تلامس مرفقه في توسلٍ لكنه قابلها بنظرة حاقدة مملوءة بالقسوة التي يملكها داخل عدستيه الواسعتين، وقد بدا عليهما حالة الهذيان الغارق فيها، أو هكذا حاول خيالها المريض تفسير أفعاله الحمقاء ثم سمعته يخبرها في خشونةٍ قائلًا:

•بتحبيني يبقى تسمعي كلامي وتطاوعيني.

تركته يلمس وجنتها في حنوٍّ كاذب، يتناقض مع نبرته الساخرة، فاستسلمت لعبراتها الحزينة قائلةً في ضعف:

•أنا قلت لك اتجوزني وانت مش موافق.

•انتي هتعمليهم عليا ولا ايه، ولا انتي ناسية أصلك!

دفعها من جديد في عنف، وقد أغضبه حديثها المستمر عن الزواج، تابع في دفعها للخلف وكأنه يُرهبها، يُسلبها إرادتها ويغلفها بالرعب، ولم يتوقف حتى عندما حاولت أن تفسر ما حدث قائلة:

•كان غصب عني وانت عارف.

•حلو ودلوقتي كمان هيبقى غصب عنك.

أردف حين دفعها فوق الأريكة ليميل نحوها متعمدًا ملامسة جسدها الأربعيني الناضج متجاهلًا محاولتها المستميتة لإبعاد أصابعه عنها متوسلة إليه في هستيريا قائلة:

•عشان خاطر ربنا ما تجبرنيش على حاجة تبت عنها من زمان.

•تبتي امتى؟ لما كنتي بتحومي حواليا في مكان أكل عيشي، ولا لما كنتي بتتخبطي فيا في الرايحة والجاية؟!

نجحت في إبعاده عنها والركض بأعجوبة حول الأثاث الضئيل، وقد ساعدها ترنحه الملحوظ بفعل ما يعاقره، سيطر على الأجواء صوت أنفاس كلاهما العالية استعدادًا لخوض معركة ضارية..

•لو مبعدتش عني هاصرخ وافضحك والحارة كلها هتعرف انك بتتهجم عليا.

•وماله صرخي وخلي كل الجيران تعرف انك فتاة ليل.

صمت ليبتلع ريقه ثم استكمل في مكرٍ للإمساك بها:

•اسمعي الكلام، أنا قاتل يا مقتول النهارده.

•انت مفيش في قلبك رحمة، فوق من اللي انت بتبلبعه ده.. أنا (غزال) حبيبتك!

قالت في صوتٍ منكسر، يعكس القهر والوجل المنبثقين من قلبها الممزق حين ركضت حول المكان..

•رحمة وحب؟! انتي ما تستحقيش الرحمة والحب، والدمعتين دول مش هيهزوني يا (غزال) لأن انتي اللي بدأتي اللعب ولازم تتحملي عواقب أفعالك.

صرخت ثم جرت لتحتمي بأول غرفة تقابلها لكنه كان أسرع عندما

هجم عليها ليدفعها في قوة للأمام حتى فقدت توازنها واصطدمت بمقبض غرفة ابنتها الذي انخلع، قفز بجسده الضخم عليها دون اعتبار لحالتها التي تتراقص ما بين الوعي واللاوعي عازمًا على تمزيق ملابسها، فخرج منها أنين ضعيف، أسرع ليبتلعه بكفه الغليظ زاجرًا:

•اخرسي، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني.

كانت تلك الكلمات تصدح وتتكرر داخل رأسها لتلوث روحها في بطءٍ لكنها كانت تسمعها على لسان شخصٍ آخر، سرق براءتها وأهان عفتها وسط الرجال.. ومن كان سببًا في عذابها الدائم، أغلقت جفونها في صعوبة، تحاول حث جسدها على استعادة الإدراك ثم تابعت خياله الأسود الذي جثم فوق صدرها حتى استجمعت عيناها رجلًا بلا ملامح بوجهٍ أسود كقلبه، يحاول تجريدها من إنسانيتها قبل ملابسها، صرخت أخيرًا في رعبٍ حقيقيٍّ، وقد تجلت ملامح الرجل، لا تعرف كيف أتتها القوة لدفعه عنها والتملص للخلف زاحفة بردفيها ومرفقيها للاختباء منه، وضعت كفيها فوق أذنيها، تئن في صمت، تشعر بنوبة من الهلع تتملك كيانها، وتابعت بقلبٍ ينتفض وعينين مذعورتين، كيف استقام وتحركت شفتاه كأنه يوبخها لكنها لم

تسمع صوته، عكست عدستاها فزعًا حقيقيًّا عندما تحركت أصابعه نحو حزامه الجلدي الأسود السميك، وبحثت عيناها تلقائيًّا عن منفذ للنجاة حتى اختطفها بريق آلة حادة ملقاة خلفه أرضًا، كانت كل حواسها تحارب الظلام المتسرب داخلها من أجل البقاء، وقد رسخت آلية النجاة فكرة الصراع مجسدة في «مِفَكّ صَلِيِّبَةْ».

*****

اهتزت رموش (غزال) في خفة لتخرج من دوامة عذابها أخيرًا، تحركت جفونها المنغلقة منذ ساعات طويلة في صعوبة، تحاول استعادة وعيها على مهل، أخرجت لسانها لتبلل شفتيها، تشعر بعطشٍ كبير ومذاقٍ مرير يسيطر على جوفها، رفعت يدها اليمنى لحك وجهها لكنها تفاجأت بها مقيدة بالسرير الراقدة فوقه، ففتحت عينيها تحاول محاربة ضوء المشفى الساطع أكثر مما ينبغي لحساسية سوداويتها، رفعت رأسها تدريجيًّا ودارت بنظرها حول المكان في ريبة ليقع نظرها على العسكري المُرهق والغارق في النوم على كرسيٍّ، يبعد عنها خطوات محتضنًا سلاحه، وكأنه يخشى فقده وقت سباته، ضربها الواقع المؤلم من جديد معيدًا إياها إلى رشدها عنوة، فأسندت رأسها إلى الوسادة دفعة واحدة، تناست عطشها الكبير واندثرت معه رغبتها في الحياة، تعلق بصرها بسقف الغرفة الباهت ثم أغمضت جفونها مجددًا تاركة لدموعها حرية الانسياب في صمتٍ لتفريغ طاقة عارمة من الألم

والظلم، تجثم فوق صدرها، ترجو أن تفقد وعيها من جديد.

*****

في اليوم التالي بمكتب (عزمي نصر الله) رئيس النيابة، أغلق الهاتف مشيرًا للعسكري أمامه بالدخول بعد أن قطع وقت راحته الضئيل ثم أمره بترك الأوراق التي في يده فوق سطح مكتبه والخروج، حرك عنقه لليسار واليمين في تعب ثم التقط الأوراق ليتفحصها حتى لفت نظره اسم (غزال محمد عطوة) وكيف ينسى الغانية ذات الملامح الملائكية والمختبئة خلف رداء البراءة؟! انتبه للتقرير الطبي من جديد، وقرأ في تأنٍ كلمات الطبيب البشري الذي يؤكد سلامتها الجسدية كما أكد مرور الحالة بصدمة عصبية، تتطلب فحصها نفسيًّا ونقلها إلى إحدى الجهات المختصة، تقوس فمه للجانب في عدم رضا، فمن غيره أدرى بأساليب هؤلاء المذنبين ورغبتهم في فرض ورقة الجنون للهرب من جرائمهم البشعة؟!

فرك ذقنه ليفكر، فلولا المقاطع المُخلة والتي وجدوها على هاتف المجني عليه وديون (غزال) له لأقر بكونها بريئة وأنها مجرد أنثى تدافع بضراوة عن شرفها ضد رجلٍ اقتحم خصوصية وأمان مضجعها، تنهد حين قرأ التقرير الطبي بالتفصيل قبل أن يرفع هاتفه ليجري اتصالًا مطالبًا:

• ابعت لي خالد يا ابني.

مرت دقائق ليدلف (خالد) سكرتير التحقيقات الخاص به قائلًا:

•تحت أمر معاليك.

•اكتب عندك يا ابني ضمن قضية رقم «......» أمرنا نحن وكيل النائب العام إحالة المتهمة (غزال محمد عطوة) إلى أحد دور الرعاية الصحية لبيان حالتها النفسية، وما إذا كانت تدعي المرض من عدمه.

*****

شعرت (غزال) باهتزاز جسدها المضطرب مع حركة السيارة العنيفة ثم نظرت إلى الشرطي الجالس بجوارها كالتائه فاقدة النطق، فهي لم تنطق حرفًا واحدًا منذ استيقاظها، رغم رغبتها في الحديث إلا أن هناك ما يمنع حروفها من التحرر للعيان! احتضنت نفسها، تشعر بالريبة والغرابة، فعقلها لا يزال نائمًا غير مدرك لما يحدث، وكأنها مغيبة عن العالم بعينين مفتوحتين! توقفت السيارة بعد لحظات ليست طويلة قاطعة بذلك فرصتها في تفسير آلاف الأسئلة داخل عقلها اليابس كالأرض الجرداء، ترجل الشرطي أولًا، وبعد لحظات وصل إلى مسمعها صوته الغليظ وحين حادث شخصًا عند البوابة إلا أنها لم تستنبط من كلماته سوى حروف اسمها.

•هِمي بينا.

أخبرها الشرطي منتظرًا نزولها على قدميها الضعيفتين وكأنها

لم تتحرك منذ سنوات، انتقل بصرها بين الحارسين أمامها وبين الشرطي بجوارها، دب الرعب داخل أوصالها مع هبوب الهواء الجاف المنبعث من هذا المكان، عادت نظراتها نحو الحارسين لتتفحص هيئتهما البدينة، وقد نجحت نظراتهما المخيفة في إضرام أسئلتها الحائرة؛

لماذا يتركونها هنا الآن؟

هل ما زالوا يتهمونها بجريمة لم ترتكبها؟

لا لا!

هزت رأسها في حركاتٍ نافية، وقد اتسعت عدستاها السوداوين داخل مقلتيها في جنونٍ مع بدء نحيبها، حاولت المقاومة لكنها باءت بالفشل أمام قوة الرجال، راقبت الشرطي - الذي لازمها أيامًا عديدة - حين رحل في خطواتٍ سريعة وكأنه سعيد بإلقاء حمل وجودها معه تاركًا للحراس مهمة جرها إلى الداخل متجاهلًا ساقيها العاجزتين عن الحركة، فلم تعد قادرة على السير تمامًا، قابلهم شرطي غريب في منتصف الطريق، كان يرتشف الشاي لكنه تركه وهرول نحو بوابة حديدية متسلسلة بسلسلة سميكة وبضعة أقفال، فتحها بينما كانت عيناه الثاقبتان تتابعهم في صمت لكنه غمغم بجملته الساخرة:

• أهلًا بيكي في ٨ غرب.

دفعها الرجلان داخل مبنى مستطيل الشكل، أروقته الضيقة أشعرتها

بالاختناق حتى وصلت أمام حجرة ضيقة جدًّا، ورغم اعتراضاتها الغير مفهومة، تركوها في الداخل قبل أن تنكمش في إحدى الزوايا مبتعدة عن كفوفهم المؤذية وقبضاتهم المؤلمة التي لا تزال تشعر بها تطبق على جسدها الصغير، راقبت خروجهم الصامت وانتبهت لصوت القفل بعد ذلك، تفحصت من خلال عينيها الباكيتين الغرفة بدايةً من جدرانها البيضاء التي تصرخ بالجنون، وكأن الحياة سحبت الألوان منها جبرًا، ورأت طاولة صغيرة بمقعدين يتوسطا المكان.

لماذا انتهى بها الحال في هذا المكان؟!

ألم تكن ماهرة بما يكفي للتعامل مع نوائب الزمن؟!

لا لم تكن.. فها هي هنا قابعة في ظلام القاع.. وحيدة.. تائهة.. غريبة حتى عن نفسها.. لا حول لها ولا قوة، فأي أحمقٍ هذا الذي يتوسم الخير في عالمٍ تدنسه الشرور؟!

انسابت عبراتها الحائرة، وقد شعرت بالحنق تجاه (نبيل) الذي تركها تواجه الحياة دونه، آه كم قطع من وعودٍ بالبقاء! لكنه لم يبقَ.. لا أحد يبقى.. قطع أفكارها وحفل رثاء الذات، انضمام رجلٍ إليها، تُفصح ملامحه المتأرجحة بين الشباب والشيخوخة عن وصوله لأواخر الأربعينيات من العمر، يملك وقارًا وفطنة، يقفزان من عينيه الداكنتين خلف زجاج نظارته المستديرة، ألقاها بنظرة طويلة متفحصة، ولم تعبر تقاسيمه الثابتة عن مشاعره الحقيقية حين رآها

مستقرة فوق الأرضية بالزاوية البعيدة، راقبت خطواته الرصينة قبل أن يستوطن المقعد أمام الطاولة واضعًا فوقها ملفًّا، لم تنتبه لوجوده من قبل بين أصابعه، رأته يعود بنظره إليها مردفًا:

•اقعدي يا (غزال).

قابلته بالصمت وظلت نظراتها مثبتة نحو عينيه، وكأنها أسيرة لنواياه.

•أنا مش تهديد ليكي يا (غزال).. أنا عارف ان ده أول تعامل ما بينا ولسه اللي جاي أكتر، فخلينا نبدأ بشكل ودي.

صمت قليلًا يتابع في ترقبٍ تصرفها القادم، وحين قوبل بالسكون استكمل قائلًا:

•هاكرر طلبي من تاني، من فضلك اقعدي يا (غزال) مش حابب أنادي الحارس يقعدك هو.

أغمضت عينيها مسترجعة معاملة الحارسين لها، فاستقامت في هدوءٍ متخذة الحائط خلفها كمسند ثم تحركت في خطواتٍ بطيئة حتى جلست قبالته ممسكة بطرفي كُميها بين قبضتيها، طالعته في ارتباكٍ متوجسة من خطوته القادمة، وكأنه يتجسد في هيئة جلادها..

•أنا الدكتور (أيوب الحكيم).. عرفيني على نفسك؟

سألها وكل اهتمامه منصب على الأوراق المفتوحة بين كفيه، لا تدري لمَ يسأل عن معلومات مدونة تحت ناظريه! وحينما طال صمتها،

ابتسم في استهزاءٍ قائلًا:

•الصمت مش مرض ولا جنون، بالعكس ده قمة العقل، لو هو ده منهجك في التعامل عشان تثبتي وجود خلل نفسي أو عقلي عندك، فيؤسفني أقولك انه أسلوب فاشل.

•أنا مش مجنونة!

خرج صوتها ضعيفًا رغم احتدام مشاعرها المهتاجة داخل صدرها، فارتفعت عيناه الثاقبتان لتتعلقا بالاهتزاز في مقلتيها ثم حثها قائلًا:

•جميل، كلميني عن نفسك يا (غزال).

صمت جديد من قِبلها، جعله يتنهد تاركًا الملف في مللٍ قبل أن يعقد ذراعيه ليراقبها في صمتٍ هو الآخر، وكأنه والد يتبع مع طفله إحدى وسائل التربية الحديثة، مرت دقائق طويلة، أرهقتها فكريًّا ونفسيًّا، وكل ثانية فيها تتحول أفكارها ومشاعرها من حالٍ إلى حال.

•عندك كام سنة؟

أبعدت نظرها عن عينيه الحادتين في صعوبة، لا تعلم سر الفوران المُثار داخل دمائها كلما التقت بملامحه الثلجية.

•متجوزة ولا لا؟

تبًّا! حتى نبرة صوته ترهبها وتبعثر نفسها المبعثرة أكثر مما ينبغي، فركت أصابعها دون توقف، فتحولت عيناه إليها لحظة قبل أن يعود بهما للطاولة مستكملًا في مثابرةٍ حديثًا من جانبٍ واحد:

•عندك أولاد؟

لمعت عيناها متذكرة (فرحتها) وكادت تقفز منها عبراتها، فانتبهت إلى (أيوب) عندما فتح الملف ليعبث بأوراقه التي حملت ما تمكنوا من جمعه عنها وعن ماضيها الأسود.

•واضح أن الدردشة الخفيفة مش بتستهويكي، تمام يا (غزال) قوليلي قتلتي (نبيل) ليه؟

خرج صوتها أخيرًا من أعماقها في طاقةٍ ازدادت لهيبًا لشعورها بالظلم والعجز قائلة:

•ما قتلتش (نبيل).. أنا عمري ما أقدر أأذيه.

أومأ (أيوب) مرتين لكنه باغتها حين مد أنامله ملتقطًا صورة صغيرة من بين الأوراق دافعًا بها أمام عينيها المتسعتين مستكملًا ضغطه:

•أومال مين ده؟! مش (نبيل) بردو؟!

ارتعشت ملامحها وانزلقت شفتاها نحو الأسفل منذرة بانهيارها الوشيك حين تجولت في شوقٍ حارق بين تفاصيله هامسة في عتاب:

•اخص عليك، كده ضحكت عليا وسبتني لوحدي وسطيهم!

•انتي اللي ضحكتي عليا الأول.

كانت إجابته خافته، سمعتها في صعوبة، فمالت برأسها نحوه مشتاقة إلى سماع نبرته الحانية متسائلة:

•ليه عملت كده فيا؟

•انتي اللي عملتي فينا كده.

حركت رأسها في نفيٍ قائلة:

•لا أنا حبيتك، وانت كمان حبيتني!

قالت في صوتٍ مختنق، وقد أنهكتها مشاعر الفقد والوحشة..

•انتي اللي كنتي عايزة تشوفي كده!

•غزال...

عادت من شرودها لتنتبه إلى صوت الطبيب، فارتعشت لتحاول أن تستعيد إدراكها بالحياة ثم طالعت كيف عقد الجالس أمامها حاجبيه مردفًا في فضول:

•انتي سامعاني؟ سرحتي في ايه؟

أغمضت جفونها مستسلمة للبكاء في صمتٍ حين شعرت بقلبها يتمزق، رفع (أيوب) نظارته المستديرة، اعتاد أن يفعل هذا حينما ينتابه التوتر، فيحاول إلجامه محدثًا تلك الحركة ثم قال محاولًا تخفيف حدة الموقف:

•بلاش (نبيل).. كلميني عن بنتك، الملف قال انها الوحيدة، ليه ما خلفتيش تاني رغم ان سنك صغير؟

كان سؤاله كالصفعة.. ارتعد جسدها ليفكر عقلها وتذوب روحها، لم ينتبه لحالة السكون والتجمد التي انتابتها أو ربما انتبه لكنه قرر حثها على التحدث دون كلل قائلًا:

•عيشتي طفولتك ازاي؟ وأعتقد دي مرحلة سهل تتكلمي عنها لأن أسعد فترات حياة الإنسان هي فترة طفولته.

•طفولتي؟

خرجت حروفها سهوًا وسط شرودها، فاقترب (أيوب) واضعًا مرفقيه فوق الطاولة، وذقنه فوق أصابعه المتشابكة متسائلًا:

•أيوة كلميني مثلًا عن فترة ما قبل العشرينيات، احكيلي عن (غزال) وقتها.

•غزال!

همست في حنينٍ للنفس، وكأنها تتذوق حروف اسمها للمرة الأولى تاركةً لعقلها مهمة جذبها للماضي في نقلة ضوئية سريعة كالوميض.

*****

في عمر الثالثة عشرة

وقفت (غزال) باكية بين أيادي النسوة، بعضهن يخلعن ثوبها الوردي المزين بالفراشات، وأخريات يتولين مهام متفرقة، ما بين فك ضفائرها الصغيرة، وإصرار إحداهن على اقتلاع حاجبيها وإزالتهما، اندفعت زغرودة سعيدة من فم والدتها التي وقفت بجوارهن، تفترش فراشها الصغير بثوبٍ أبيض فضفاض، صدره مرصع باللؤلؤ، ونصفه السفلى منتفخ، يعلوه الطبقات الواحدة تلو الأخرى، فتبدو تنورته واسعة.

•مش عايزة اتجوز والنبي يا أمى.

لم يبالِ أحد لصوت الصغيرة، والذعر المُحلق في عينيها، فقط والدتها التي حدجتها بعينين جاحظتين آمرةً إياها في قسوة:

•أبوكي لو سمعك هيفشفش راسك مية حته!

•والنبي يا أمى، والله ما هعمل أي حاجة تضايقكم، بس مش عايزة اتجوز، أنا خايفة أوي.

•يا عبيطة خايفة من ايه؟ ده انتي هتتجوزي ويبقى عندك بيت لوحدك وهدومك كلها جديدة وراجل يحميكي.

انكمشت ملامح (غزال) في كرهٍ حين بصقت اعتراضها في وجه

السيدة التي أمامها قائلة:

• اتجوزي انتي، أنا عايزة أمى واخواتي.

• اكتمي يا مقصوفة الرقبة، والبسي فستان الفرح، عريسك قاعد مع أبوكي من بدري، وانتي لسه بتتدلعي؟! شدوا حيلكم معانا يا بنات، عشان نلحق نلف القرية كلها قبل ما يركبوا القطر، لازم الخلق كلهم يعرفوا ان العروسة اللي عريسها من المدينة تبقى من بيت (عطوة)!

وجهت المتبقي من حديثها في فخرٍ إلى السيدات المنهمكات في تجهيز العروس الباكية دون اكتراث للجريمة البشعة التي على وشك الارتكاب في حق ابنتها تحت ستار العادات والتقاليد والمفاهيم الخطأ.

بعد مرور وقتٍ كبير، وقفت (غزال) أمام مرآتها، تتفحص هيئتها المضحكة داخل ثوب الزفاف، ورغم أن جسدها كانت تبدو عليه ملامح الأنوثة المبكرة - فقد مر عليها (خراط البنات) مبكرًا كما تقول جدتها - إلا أنها لا تزال غارقة كالعصا بين ثنايا الثوب الواسع، شعرت بالاشمئزاز وقد ضاع نقاء وجهها وملامحه الملائكية الخلابة خلف أدوات الزينة، فكان فمها الوردي كبتلات الزهور مغطى باللون الأحمر القاتم كالمهرجين، واللون الأخضر يستقر فوق جفنيها، وكأنها أحد مسوخ السيرك الهاربة، رفعت الثوب بين أناملها الصغيرة، وذهبت إلى والدتها لتحتضنها متوسلة:

•عشان خاطري يا أمي، مش عايزه اتجوز.

أتاها الرد على هيئة صفعة من والدها القاسي حين وبخها قائلًا:

•اخرسي يا قليلة الرباية، مفيش بنات تقول اتجوز ولا متجوزش، شايفة تربيتك يا ست؟!

دفعتها والدتها متحجرة القلب عنها لتجبرها على ترك حضنها قائلة في عتابٍ خشية غضب زوجها:

•منك للّه، جبتيلي الكلام، قدامي على برا وحسك عينك تفتحي بؤك بالكلام ده قدام جوزك.

خرجت مرغمةً كأضحية يسوقونها للذبح، أمسك والدها مرفقها، يقودها للجلوس بجوار رجلٍ، يتعدى الثلاثين عامًا، ملامحه تثير داخلها الذعر، ورغم الابتسامة المرتسمة فوق فمه إلا أنها تستشعر منه أمرًا خفيًا، يثير رعبها ويدعوها للقلق.

وبعد مرور ساعاتٍ طويلة من احتفالات الأهل والأقارب وسكان القرية، تقبلت (غزال) مصيرها صامتة، تعاني آلام اليُتم بين أفراد أسرتها، تركتهم يقودونها حول الشوارع الضيقة حتى انتهت رحلة الطواف أمام محطة القطار لتبدأ رحلتها وحيدة مع هذا المسمى (زوجها) إلى مصيرٍ أسود، سيغير مجرى حياتها، ويجعلها ترجو الموت كل دقيقة أملًا في انتهاء المعاناة.

*****

تنقلت (غزال) بين أرجاء المطبخ، تنهي مهمة إعداد الغداء في أسرع وقتٍ قبل وصول (توفيق) فقد مر أسبوع على زواجها، ولا ترغب في إثارة غضبه أو ضيقه بعد معاملته الحسنة والغير متوقعة لها، فهو لم يقربها أو يفعل الأفعال المرعبة التي كانت تهمس بها النساء في أذنها العذرية بين الحين والآخر وقت تجهيزها للعرس.

قطع تفكيرها صوت وصول (توفيق) الذي كان واقفًا عند باب المطبخ يراقبها، ارتبكت كعادتها لكنها وقفت كالتمثال تحت نظراته الثاقبة حتى أردف قائلًا:

•سيبي اللي في إيدك وادخلي البسي اللي في الكيس ده.

مدت أصابعها لتتناوله ثم نظرت داخله في فضولٍ، وابتهجت حين أخرجت عروسًا بلاستيكية صغيرة بضفائر تشبه ضفائرها، فقالت:

•الله، اللعبة دي ليا أنا؟!

•أيوه بس اللعبة دي لبعدين، طفي البوتجاز وادخلي البسي الهدوم دي الأول.

حركت رأسها موافقة، وركضت لتلبية أوامره، فأوقفها مؤكدًا:

•البسي كل اللي في الكيس يا (غزال).

لم تفهم لمَ كرر جملته لكنها أدركت مقصده عندما وجدت الملابس الداخلية شفافة المظهر إلا أنها تغلبت على خجلها وابتلعت قلقها مرتدية إياها لإرضائه ثم ارتدت فوقها ثوبًا قرمزي اللون مزينًا

بالورود قصيرًا بالكاد يصل إلى ركبتيها كأثوابها التي كانت ترتديها قديمًا، والتي منعتها عنها والدتها مع تغيرات جسدها، استدارت سريعًا حين فُتح الباب ودلف (توفيق) ليلقي عليها نظرة راضية قائلًا:

•جميل عليكي زي المتوقع، ضفري شعرك ويلا عشان اتأخرنا.

•احنا هنخرج؟

سألت في صوتٍ منخفض، يخالف طبيعتها الفوضوية لكنها تعلمت الطاعة منذ خرجت من قريتها بالوجه القبلي ووطأت قدماها تراب الوجه البحري، نعم هي طفلة لكنها تعلم مدى ابتعاد المسافات بينها وبين من مثلوا السند والحماية يومًا.

تابعت كيف تجهم وجهه، فقد تعلمت في الأيام السابقة أنه يكره الفضول والاعتراض، فحاولت قدر الإمكان عدم مخالفته أو الاعتراض لكنه أجاب قائلًا:

•أيوه.. متتأخريش.

أسرعت لتصفيف شعرها حين غادر، وقد تجلى تحذيره المبطن في لهجته، أجل لا تعرف العقاب الذي ينتظرها لكنها بالتأكيد لا تريد اكتشافه.

*****

واكبت (غزال) خطوات (توفيق) السريعة حتى توقفا معًا أمام باب شقة من الخشب الفاخر المميز، وتساءلت: كيف سيكون المنزل من

الداخل إذًا؟ لكنها لم تتساءل كثيرًا، فقد فُتح الباب مظهرًا رجلًا أصلع الرأس قصير القامة، يبدو مضحكًا مع جسده البدين، والسيجار بني اللون الذي يضعه بين شفتيه لكنه أبعده مرحبًا بهما مظهرًا أسنانه الصفراء المقززة:

•أهلًا وسهلًا.. اتفضلوا.

•أهلًا بيك يا (مدحت) باشا.

قبضت يد زوجها وقد أربكتها نظرات هذا الباشا المباشرة نحوها وأثارت خوفها، جلست في صمت، وهذا الأصلع يُصر على التحديق إليها دون خجل، فقررت خفض بصرها وتجاهله تمامًا، مرت عليهم بضع دقائق، بدت طويلة بسبب تحديقه الصامت إليها حتى ذهب ليقدم لها كأسًا من العصير، تعجبت من آداب ضيافته لأنه لم يقدم لزوجها مثله، انتهى تذمرها عندما تركاها وذهبا داخل حجرة كبيرة، فمالت في فضولٍ للتلصص داخلها ومعرفة محتواها، قاطعها خروج زوجها المفاجئ من الباب مرة أخرى محذرًا إياها:

•اشربي العصير كامل لحد ما اجي.

رفعت الكأس تلقائيًّا، تتجرعه في جرعات كبيرة دون استمتاع ثم وضعته في حذرٍ فوق الصحفة الفضية، بدأت بتفحص المكان الكبير من حولها منبهرة بالتفاصيل الخلابة والأثاث الفخم فيه، ولفت نظرها التماثيل الذهبية منبهرة بمهارة صناعها الذين نجحوا

في تشكيل المنحنيات الصحيحة لها حتى بدوا كأنهم بشر يحتفلون ويتراقصون، أو ربما خُيل لها هذا.. كان هذا آخر تفكير لها قبل أن تنزلق من فوق المقعد فاقدة للوعي.

خرج (مدحت) أولًا ليطالع جسدها المرتمي ثم أشار إلى السفيه - الذي بجواره - بحمل الفتاة ووضعها كالديوث فوق فراشه، تحرك بعدها (توفيق) للمغادرة، وهذا يؤكد أن تلك الكارثة ليست الأولى من نوعها لكنه توقف قائلًا:

• مش عايز ارجع الاقيها جثة زي المرة اللي فاتت.

علت ضحكات (مدحت) وأومأ موافقًا بينما خرج الآخر سعيدًا بالمبلغ الذي حازه ويراه رقمًا وهميًّا.. رغم أنه مبلغ زهيد للغاية مقابل عذريتها ورجولته المسحوقة.

*****

كانت (غزال) منزوية في أحد أركان الحجرة، متبلدة المشاعر، تحاول الاختفاء قدر الإمكان عن ناظري الوحش المتجسد في (مدحت) والذي أذاقها من الصفعات ألوانًا منذ استيقظت ووجدته عاريًا بجوارها في لحظة بشعة ستحفر داخل عقلها إلى الأبد، كانت تصرخ باكية عندما اكتشفت أنها عارية، تم تجريدها تمامًا من ملابسها وبراءتها، صرخت باسم (توفيق) مرارًا وتكرارًا، لا تدري كيف سيكون رد فعله على هذه الكارثة! بالتأكيد سيقتلها ويغسل العار دون سماع ترهاتها،

وحتى إن تركها تتحدث، ماذا ستخبره؟!

لا أدرك كيف غبت عن الوعي، فاستيقظت لأجد نفسي في فراش وحشٍ، فض عذريتي وانتهك جسدي تاركًا إياها غارقة في آلامٍ متعددة، أكثرها بشاعة هو شعورها بالتمزق أسفل بطنها، وفي مكانٍ لن تبوح به أبدًا!

علا جرس الباب، ولوهلة فكرت في الركوض والصراخ طالبةً مساعدة الطارق لكنها كانت عارية متألمة مذعورة، وكل السيناريوهات التي دارت داخل مخيلتها الصغيرة الساذجة، لم تؤهلها لمشهد دخول زوجها الواجم إلى الغرفة خلف (مدحت) الذي تحرك ليفترش السرير مستكملًا نومه، وكأن شيئًا لم يكن، نطق (توفيق) دون اكتراثٍ قائلًا:

•البسي هدومك ويلا عشان هنمشي.

هدم الواقع والخيال، والعوالم أجمع بتلك الكلمات، فقالت متلعثمة:

•انت عارف؟!

•عارف، البسي ويلا مش هاكرر كلامي تاني.

•لا ابعد عني، أنا عايزة ارجع لماما و...

باغتها بصفعة قوية، رجت جمجمتها وواقعها، فوجدت نفسها تفترش الأرض عارية، وقد تملكها الرعب من أعلاها لأسفلها مع نظراته القاتلة خصوصًا حين قال:

•مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني! ولو كلمة واحدة طلعت لأي حد، أنا اللي هطلع روحك بإيدي، انتي فاهمة!

انتفض جسدها في ذعرٍ لدقائق حتى انتابتها حالة من الصدمة، وحينما صرخ اتجهت صامتة دون مقاومة لترتدي ملابسها، وحين انتهت دفعها تحت قيادته إلى خارج المنزل المشؤوم، أجبرها على دخول سيارة أجرة لكنها ابتعدت عنه لتجلس في أقصاها بجوار النافذة التي أغرقت وجهها فيها طوال رحلتها نحو المجهول.

*****

مزقت أوراق نتيجة التقويم قبل أن تجلس فوق فراشها تطالع الرقم، لا تعلم كيف مرت الأيام الأربعة عشرة السابقة عليها بعد ما حدث، فحتى الآن عقلها الصغير عاجز عن تفسير ما حدث! لقد نشأت في منزلٍ ريفيٍّ صغير، الكلمة الأولى والأخيرة داخله هي للرجل المتمثل في والدها، نشأت على الطاعة والاستسلام والخضوع، وأن الزوج دومًا على حق، فهل هذا هو الحق؟ هل هذا ما تفعله المرأة المتزوجة؟!

تذكرت حين كانت في العاشرة من العمر، واختفت (وداد) إحدى فاتنات القرية، والتي تمنت (غزال) سرًّا أن تكتسب من الجمال ما يضاهيها، تتذكر أن اختفاءها الغامض، لم يكترث له الجميع، وحينما تجرأت على سؤال والدتها أثناء مساعدتها في الطهي، صرخت محذرة:

•(وداد) جابت العار لأهلها، خدت جزاءها وإياكي تقولي اسمها قدام حد لابوكي يكسر عضمك!

لم تفهم وقتها معنى (العار) ولم تستوعب وجوب حذف (وداد) من قاموسها لكنها سمعت فيما بعد من الفتيات اللواتي يتهامسن سرًّا، ما حدث لها وكيف اكتشف والدها أنها زانية، تعاشر رجلًا من قرية مجاورة، وقتها أيضًا لم تفهم معنى كلمة (زانية) أو (معاشرة) لكن مع فضولها وأسئلتها المستمرة، نجحت في ترجمة معناها ليتناسب مع بساطة عمرها ومعرفتها في وقتها.. (الزنا) أن يلمسها رجل غير زوجها، فتكون النار مصيرها، فماذا إذا كان الزوج على علمٍ، وهو السبب؟!

قطع شرودها وصول (توفيق) فقفزت من مكانها مرتعبة خصوصًا عندما دخل مستفسرًا، والسخط يلوح داخل عينيه قائلًا:

•الأكل زي ما هو، ده معناه انك رجعتي تجوعي نفسك؟

أومأت نافية، فقد عانت من فقدان شهيتها، ولم تكن قادرة على ابتلاع الطعام لأكثر من ثلاثة أيام بعد ما حدث، كانت نوبة غريبة عليها، لم تخرج منها إلا حين خلع (توفيق) حزامه الجلدي السميك متهمًا إياها بالعصيان مقررًا ضربها ضربًا مبرحًا، لن تنساه طوال العمر قبل أن يجبرها على تناول الطعام قائلًا:

•ادخلي جهزي أكل ليا وليكي حالًا، وبعد ما تخلصي، البسي الهدوم

اللي ڤي الكيس ده.

نظرت إلى الحقيبة البلاستيكية متوجعة، وأحست بالدموع تتجمع ڤي مقلتيها، وبالطنين يزداد ڤي أذنيها حين أعاد على مسمعها تلك الكلمات السامة، اهتزت أصابعها الصغيرة لتلتقطها خشية طغيانه وقسوته، بعد أن اتجه إليها بنظرةٍ مرعبة، تحركت كي تجهز الطعام تاركةً لدموعها حرية الانسياب ڤي الداخل خشية القادم والتكرار، والألم المبرح الذي عانته سابقًا، وبالفعل صدق حدسها حين ارتدت الملابس لكن تلك المرة كان الثوب مغايرًا للثوب الطفولي السابق، فقد أبرز هذا الثوب ملامح جسدها لتبدو مثيرة، وزادت تعاستها حينما استقبل زوجها بعض الرجال ڤي المساء طالبًا منها تقديم مشروبات نفاذة كريهة الرائحة والجلوس معهم، بالطبع جلست على مضض رغم الذعر والقشعريرة التي تصيبها وسط نظراتهم التي تمزق جسدها ومديحهم البذيء مرغمةً على دخول متاهاتهم من الفسوق والفجور.

*****

في عمر الرابعة عشرة

جلست (غزال) في عيادة الطبيب، توشك على الإنجاب، وقد فاجأتها آلام الوضع، فهتف (توفيق) المنزعج قائلًا:

•اقفلي بؤك، الدكتور جايلك خلاص، منك للّه، قلت لك نخلص منه.

عضت شفتها غير قادرة على الاعتراض من شدة الألم، وإخباره أنه لم يكن قرارها لكن الطبيب هو من رفض ثورته العارمة ومطالبته بالإجهاض لأنها تعدت الشهور المسموح بها، وأن الإجهاض قد يودي بحياتها مع الجنين، فقد اكتشف كلاهما الأمر صدفة منذ شهورٍ قليلة، وأنها في الثلث الأخير من الحمل عندما ثار جنون أحد الزبائن الذي ثمل وظن أنها زوجته الخائنة مقررًا تعنيفها جسديًّا، ولولا تدخل (توفيق) لانتهت جثة هامدة تحت هجومه، صرخت متألمة دون أي مقدمات وقد زاد ألم الولادة في أسفل ظهرها، وأنقذها من سيل شتائم زوجها، دخول الطبيب الذي أمر الممرضة بتحضيرها للوضع، توقف الألم أخيرًا واستطاعت جذب أنفاسها حين أخضعها الطبيب للتخدير لكنها استيقظت بعد وقتٍ قصير على ألمٍ يمزق أسفل البطن، ظنته من آثار الولادة القيصرية التي أجرتها للتو، كادت تغرق في

اعتراضاتها المتألمة لكنها تاهت عن تلك الآلام وتناستها حين انتبهت لصوت الممرضة التي تحمل ملاكًا صغيرًا بين ذراعيها قائلة:

•مبروك بنت زي القمر.. ربنا يخليهالك.

تجاهلت ابتسامة الممرضة المشفقة عليها، فلم تعد تملك من الطاقة ما يكفي لتفسيرها، مدت أصابعها لتلتقطها وتشم رائحتها النقية بكل ما تملكه من حنين وفرحة.. نعم.. ستسميها (فرحة) لتكون مصدر سعادتها، إلا أن فرحتها لم تدم، فقد فجعها الطبيب بخبر اضطرارهم لقطع الرحم قبل أن يذهب مقدمًا اعتذاره وأسفه الجافي، جذبت نفسًا عميقًا ليتقبل قلبها الصغير الصدمة في هدوءٍ وكأنها متوقعة عقابًا من نوعٍ ما، ثبتت نظراتها التعيسة - التي لا تتناسب مع ملامحها الفتية - فوق رضيعتها التي همت بالصراخ مطالبةً بالطعام، ضمتها تلقائيًّا بين ذراعيها، تحاول تهدئتها بغمغمتها الخافتة بينما تترك للممرضة إرشادها إلى الطريقة الصحيحة لإمساك الطفلة وقت الرضاعة غافلة عن (توفيق) اللعين الذي يقف مع الطبيب على الجهة الأخرى من الباب، يعطيه باقي أمواله مقابل إزالته الغير مشروعة للرحم بناءً على طلبه، فهو لم يتزوجها لتنجب الأطفال، لديها مهمة واحدة ستقوم بها حتى الممات كما أنه لن يتقبل أن يرتبط اسمه من جديد بطفلٍ لا يعرف هوية والده.

*****

في عمر التاسعة عشرة

عقدت (غزال) ذراعيها في إصرارٍ لتتمايل عن قصد أمام زوجها وبعض (الزائرين) من تجار السموم الممولين لزوجها مقابل بعض المتعة التي يوفرها جسدها المثير، والتي زادت فتنته مع مرور السنين، مضغت علكتها في مللٍ دون اهتمامٍ بالجالسين، تشعر بالتشفي للغضب المشتغل داخل مقلتي (توفيق).. سعيدة أنها لا تزال قادرة على مساومته برفضها لطاعته إن استمر في سلبها كل أمانيها، ابتسمت في دلالٍ حين وقف ليخبرهم في نبرةٍ هادئة رغم القلق الظاهر على وجهه، والذي لم تستطع ابتسامته أن تخفيه:

•بيتكم ومطرحكم يا رجالة، قومي يا (غزال) عايزك دقيقة.

استعدت للمعركة حين تبعته وأغلق الباب خلفهما، تركته يعتصر معصمها مزمجرًا:

•افردي خلقتك دي، انتي عايزة تطفشيهم؟!

نفضت ذراعها قائلة في إصرار:

•قلت لك مش هعمل أي حاجة غير لما تيجي معايا تقدم للبنت في المدرسة.

•بنت ايه وزفت ايه على دماغك! انتي عارفة اللي بره دول لو مزاج

قعدتك مش أعلى من مزاجهم هيعملوا فينا ايه؟

•ماليش فيه، مش هطلع غير لما توعدني ان بكره هتيجي معايا المدرسة تقدم ملف لـ (فرحة).

رفع يده في غل كأنه يود صفعها، فأسرعت تحذره قائلة:

•اضربني وساعتها انت الخسران لأن محدش هيبصلي.

قبض أصابعه في غيظ قبل أن يومئ مستسلمًا لرغباتها ثم قال:

•ماشي يا (غزال).. اطلعي شوفي شغلك، وأنا وعد بكره هاروح معاكي.

كبحت ابتسامتها وسعادتها بهذا النصر الصغير لكنها أردفت تحذره:

•وبلاش تزود في العيار زي كل مرة، خليك فايق معايا قبل ما روحي تروح في ايد واحد من التيران اللي برا!

حذرته بعد أن انتبهت لزيادة حاجته للخمور والمخدرات، فكل ما تخشاه هو أن يُلحق الأذى بابنتها النائمة كالملائكة في الغرفة البعيدة، فهي لا تثق بأفعال هؤلاء الذئاب إن غاب (توفيق) عن الوعي، ولن تأمن لوجودهم تحت سقفٍ واحد مع طفلتها، دفعت صدره بكتفها لتتخطاه، فهي المرة الثانية التي تتمرد عليه وتخرج منتصرة، المرة الأولى كانت منذ عام عندما تعاظم عنفه ضد فتاتها الصغيرة التي لا تفقه شيئًا، وقتها استجمعت شجاعتها مهددة بمنع جسدها عنه وعن شهوات الزائرين، ورغم أنه اتجه لكسر عزيمتها بالعنف إلا أنه

استسلم في النهاية أمام عنادها الحديث لتنجح في إجباره على وقف ضربه المستمر للصغيرة دون سبب، فقط لأنه حاقد على والدها الذي يجهل هويته، وها هي للمرة الثانية تحارب من أجل أن تمنع فتاتها بأبسط الحقوق في هذه الحياة، سرقت من الحياة لحظة لتلتقط نفسًا عميقًا، تخفي معه (غزال) الشريدة وسط ضربات الزمن وأعاصير أفكارها مستحضرة صورة (غزال) أخرى، سَكن العُهر روحها وملامحها، مر عليها الوقت بطيئًا كريهًا، والرجال المغيبون عن الواقع يتلقفونها كأنها لعبة بلا روح، كانت منهكة منزوعة الطاقة والمشاعر بلا شفقة، فلم يرفق بها الرجلان اللذان استباحا جسدها، الواحد تلو الآخر حاملة في نفسها هم الأخير المرافق لزوجها في الخارج، ولم يحن دوره لتمزيقها بعد، قطع فقاعتها الذهنية - التي تلجأ داخلها في تلك الأوقات لنسيان ظلام الواقع وقذارته - صوت صراخ طفلتها، انتزعت قلبها من صدرها، فتملكتها قوة توازي قوى ثلاثة من المحاربين القدامى، فإذا بها تدفع الرجل المرافق لها لتقفز من فوق الفراش جاذبة عباءة مُعلقة خلف الباب كي ترتديها دون أن تتوقف لحظة عن الركض، انفرجت عيناها، فأسوأ كوابيسها تتحقق أمام عينيها، فها هو زوجها غائب عن الوعي فوق الطاولة بينما كان أحد رجال القطيع يحاول لمس ابنتها، والتي خرجت في براءة تطلب شرب الماء، فقوبلت بهذا الأرعن الثمل الذي هيأ له شيطانه الصغيرة ذات

الخمس سنوات في صورة امرأة، تشبع شهواته الحيوانية، تأججت النيران واندلعت ثورة عارمة، فاقت ثورات الشعوب داخل صدرها، فجذبت إحدى زجاجات الخمر لتستقر بها فوق رأسه، دفعها أحد الرجال الراكضين خلفها بعيدًا عنه، وحاول وسط ترنحه تبين إن كان صديقه لا يزال على قيد الحياة أم لا، لم تنتظر لحظة متخذة القرار بإنقاذ كل ما تملكه، فحملت ابنتها الباكية وخرجت هاربة من باب جهنم التي عاشت فيها منذ أن باعها والدها، حاولت إحكام العباءة فوق جسدها العاري لتعدل وضع ابنتها فوق صدرها راكضة في الشوارع دون وجهة تتجه إليها، فليس لها قريب أو حبيب في المدينة، انسابت دموعها على وجهها، وقلبها يدق في ذعر، يخشى القادم لكن سرعان ما استقرت السكينة في قلبها لتقرر أن أي حياة أخرى أفضل من تلك، يكفي خوفها الدائم وهوسها بأن العقاب الإلهي قد يلحق بابنتها، قادتها ساقاها بعد التنقل بين الطرقات إلى محطة القطار، وهناك أثارت شفقة بعض الرجال أو ربما غريزتهم، لا يعنيها، المهم أنها نجحت في إقناع أحدهم بشراء تذكرة قطار، وآخر بشراء طعام لابنتها الجائعة، وها هي داخل أول قطار على وشك التحرك، دون أن تكترث لوجهته المتمثلة في محافظة الإسكندرية لتبدأ حياة شريفة مع ابنتها.

*****

عادت (غزال) من ذكرياتها القبيحة على صوت (أيوب) التي تناست وجوده معها لهدوئه المُفرط، فهو لم ينبس ببنت شفة طوال حديثها حتى تكلم في هذه اللحظة لينقذها من ذكرياتها الشاردة قائلًا:

•كملي، سكتي ليه؟

حاولت استيعاب حروف سؤاله البسيط لكنه باغتها بسؤالٍ جديد قائلًا:

•جوزك راح فين بعد كده؟ عرف يوصلك؟

تنهدت ثم أخبرته في نبرةٍ ضعيفة:

•لا ربنا بعده عن طريقي وغمى عينيه عني أنا وبنتي لحد ما مات في السجن.

•وانتي عرفتي منين إنه دخل السجن؟

سألها في فضولٍ منغمسًا في تحليلاته، فأجابته سريعًا على غير عادتها:

•بعد ما هربت بأربع سنين، شفت صورته في صفحة الحوادث.. بعنوان عريض في نص الصفحة.. (القبض على قواد القاصرات).

صمت ليفكر ثم طرح سؤالًا جديدًا:

•حسيتي بايه وقتها؟

بللت شفتيها ناظرةً إليه ثم حركت كتفيها لتخبره في حزنٍ قائلة:

•حسيت بالأمان لأول مرة في حياتي، وكأن الدنيا رضيت عني من

جديد واني هاقدر أربي بنتي وأعيشها العيشة اللي بتمناها بعيد عن الوحل والقذارة.

حرك رأسه في هزةٍ طفيفة ليخفي تعاطفه معها خلف ستار نظارته لكنه لم يتغلب على فضوله، وسألها قائلًا:

•وعرفتي ازاي انه مات؟

ابتسمت ابتسامة قاتمة، ولأول مرة يلمح مشاعر أخرى على وجهها غير الحزن والاضطراب، مشاعر خطيرة مُرعبة!

•بعدها بكام شهر، شفت خبر غريب عن موت سجين والتمثيل بجثته.

اتسعت ابتسامتها دون وعيٍ منها لتكمل حديثها قائلة:

•أتاريه ما حرمش من بعدي وراح يدور على ضحية جديدة لكن الضحية المرة دي كان ليها سند، أخ لما عرف اللي حصل لأخته عمل البدع عشان يدخل السجن ويوصله، ولما دخل خلص عليه بالطريقة اللي يستحقها.

أنهت جملتها في سخريةٍ، تعجب لها (أيوب) لكنه تابع استجوابه قائلًا:

•قتله ازاي؟

لمعت عيناها لتحرك كفها كناية عن القطع، وكأنها سكين حاد قائلة:

•خلينا نقول ان أخوها قطع أعضاء مهمة بسكينته، وسابه يتصفى

من دمه لحد ما مات.

ازدرد ريقه حين استوعب مقصدها، فأخفض عينيه عن القسوة السابحة في عينيها، فزوجها يستحق ثم قرر إرباكها بسؤاله قائلًا:

•عشان كده كرهتي الرجالة وقتلتي (نبيل)؟

اختفت كل التعابير عن محياها، ونظرت في صمتٍ كأنها تعاتبه على اختراق ثقتها به وإنهاء استمتاعها.

ارتفع جانب وجهه الأيسر مبتسمًا ليقول حين لملم أوراقه:

•كنت فاكر ان ربنا بيدي مع الجمال الرحمة في القلوب، بس في حالتك واضح ان الأربعة وعشرين قيراط كانوا للجمال، والرحمة ملمستش قلبك.

لم ينتظر إجابتها، وتحرك نحو الباب طارقًا قبل أن يفتح الحارس ليأمره (أيوب) قائلًا:

•دخلها عنبر الحريم.

*****

وضعت (أم طه) عددًا من الأواني البلاستيكية المعبأة ببعض أنواع الطعام المختلفة قدر استطاعتها مقررة زيارة (غزال) فرغم أنها المكتشفة الأولى للجريمة إلا أنها ترفض تصديق أن رفيقة العمر قادرة على قتل روح بهذه الطريقة البشعة كما أنها لن تنكر شعورها بالشفقة نحوها بعدما رفضت ابنتها الوحيدة أي تواصل معها، تحركت في

سلاسة لتنظف أرجاء المطبخ وتخفي آثار جريمتها الشهية محاولة الإسراع كي تنطلق إلى وجهتها قبل وصول زوجها من العمل والإمساك بها في مسرح الجريمة متيقنةً أنه لن يوافق أبدًا على زيارتها لها، خرجت تبحث عن غطاء رأسها محتضنة الحقيبة بين ذراعيها لتؤكد لـ (دعاء) ابنتها الكبرى قائلة:

•خدي بالك من أختك الصغيرة، ولما أبوكي يرجع قولي أمي نزلت مشوار مع (أم سناء) عشان يشتروا شوية حاجات في جهاز (سناء).. مفهوم؟

•حاضر.

•اوعي يا بت تغلطي وتقولي اني جهزت أكل ونزلت بيه.

ضاقت عيناها محذرةً ابنتها الغارقة في مشاهدة التلفاز حين علقت الحقيبة على رسغها كي تضع غطاء رأسها لكنها استدارت في ذعرٍ عندما أتاها صوت زوجها الخشن قائلًا:

•أكل ايه؟

اللعنة على الحظ الذي لم يكن حليفًا لها يومًا! ارتبكت لتخبره في تلعثم:

•مفيش يا خويا، كنت نازلة مع (أم سناء) شوية عشان جهاز العروسة.

تشمم الهواء من حوله قبل أن يتساءل في ريبة:

•وهو جهاز العروسة بياخدوا معاه طبيخ في الطريق؟! انطقي يا وليه كنتي رايحة فين؟

•من غير زعيق طيب، الصراحة كده أنا كنت رايحة زيارة لـ (أم فرحة).

أخبرته رغم توجسها منه لتبتعد عنه عدة خطوات منتظرة انفجاره، وبالفعل حدث ما توقعته حيث صرخ قائلًا:

•يا نهارك اسود، انتي مخك اتلحس يا وليه؟! عايزه تروحي لواحدة قتالة قُتَله؟!

•والله العظيم (غزال) دي أغلب من الغلب، وما تقدرش تقتل نملة، أنا متأكدة ان في حاجة غلط، وان ربنا مش هيظلمها وهيظهر الحق.

حاولت إقناعه لكنه اتجه نحوها لجذب الحقيبة من يدها، وإزالة غطاء رأسها في قرارٍ نهائيٍّ بعدم خروجها مؤكدًا:

•لا.. ده انتي أكيد جرا لمخك حاجة، أومال لو مش انتي بنفسك اللي لقتيها قاعدة في دم الراجل السايح! انتي عايزة تشبهينا قبل عريس بنتك وأهله ما يجوا آخر الأسبوع؟! روحي اشبهينا وخلي الجوازة تخرب عشان اخربها على دماغك!

تجولت خلفه في المكان الصغير، تحاول تهدئته وتحمل تكهناته لكنه رفع كفه ناهيًا النقاش ثم قال:

•يمين بالله لو ما سمعتي الكلام لأكون مسلمك ليهم عندها في سراية المجانين.

زفرت (أم طه) قبل أن تستغفر الله عاليًا ثم جلست إلى جواره بين أبنائهم تتابع في صمتٍ حين فتح العلب البلاستيكية ليوزعها على الصغير قبل الكبير دون تعليق.

*****

تململت (غزال) فوق الفراش الصغير الذي بالكاد يتحمل جسدها، تحاول الهروب إلى النوم من كل هذا البياض الناصع من حولها، والذي بدأ يخل بالجزء المتبقي من عقلها، لا تفهم سر تمسكهم باللون الأبيض! فجدران العنبر بيضاء والشراشف والأغطية جميعها بيضاء اللون، وكأن أحدهم استيقظ من النوم على الجانب الخطأ، فقرر معاقبة المرضى بسحب الحياة أمام أعينهم، انتفض جسدها مع علو صوت بكاء إحدى السيدات في منتصف العنبر.. تلك المسكينة.. قضت الأيام الماضية ساهرة مثلها.. الفرق الوحيد بينهما أنها تقضيه في البكاء حزنًا على غياب حبيبها وتأخره عن استلامها من هذا المكان والهرب معها، أما (غزال) فقد نضبت دموعها، ولم يعد هناك ما تقدمه إلى الحزن، تقلبت من جديد، تحاول منع نحيبها الخافت من اختراق قلبها المكتفي بمأساته ووحدته.. حقًّا أنها عاشت تخاف قرب الرجال ونواياهم إلا أنها وسط كل هذه المصائب، وقع بصرها

على (نبيل) الرجل المثالي الوحيد الذي مر عليها، والذي رأت فيه كل أحلامها مما جعلها ترجو أن تجد الحُب والمُحب كأي أنثى حية تمتلك نبضًا رغم ما مرت به، حينها كانت (فرحة) في السنة الأخيرة في الجامعة، وكل العالم ينظر إلى (غزال) الأم المضحية بشبابها بعد وفاة زوجها من أجل تربية ابنتها دون أن يعلم أحد منهم حقيقة ماضيها، تنهدت في أسى بقلبٍ يعتصره الألم تاركةً نحيب السيدة الموجع لأن ينقلها لتتوه معه وسط ذكرياتها الأكثر وجعًا.

*****

تدلت (غزال) من حافة الشرفة قليلًا متعمدة النظر داخل دكان الملابس الجديد في حارتهم بحثًا عن مالكه.. (نبيل) رجل وسيم ذو ملامح جذابة، يبدو في أوائل الأربعينيات، فكرت في دلالٍ متذكرة أول مرة وقعت عيناها عليه منذ شهورٍ قليلة حين وقف في منتصف الحارة ليصفع أحد المتحرشين محذرًا إياه من تكرار فعلته، وإلا سيجبره على الانتقال من مسكنه في الحارة، انتفضت خجلًا متوترة عندما قاطعها صوت (فرحة) المتذمر:

•ممكن أفهم انتي موافقة على كل كلامهم ليه؟

تنهدت، لقد علمت مقصدها، فهي تشير إلى عائلة الرجل العروس (اللؤطه) على حد قول (أم طه) والذي تقدم لخطبتها دون مبالاة باعتراضات عائلته الجلية.

•بطلي رغي يا (فرحة) وادخلي كملي مذاكرة، عدي السنة الأخيرة على خير عشان (شريف) يعرف يجيب لك شغل معاه لما تسافروا.

أنهت جملتها حين أغلقت الشرفة الخشبية ثم خلعت ثوبها وجلست بجوار ابنتها الواجمة لتكمل حديثها قائلة:

•يا بت افرحي، حد لاقي عريس طول بعرض وقيمة كده ويزعل!

•بس يا ماما والنبي، اهو كلامك ده هو اللي مركبهم علينا، ومخليهم يبيعوا ويشتروا فينا.

ضحكت والدتها لتقرص وجنتيها مؤكدة:

•كفاية لماضة، أنا عارفة الأفضل ليكي، ويلا قومي كملي مذاكرة، وسبيني أنزل ألحق شغلي.

دخلت (فرحة) غرفتها متمتمة في لهجتها المنزعجة:

•قصدك الشغلانة المليون عشان نلاحق على طلبات أم المحروس.

•وبعدين معاكي يا (فرحة).. ده كفاية حبه ليكي يا بنتي ثم أنا قدامي عشر شهور قبل فرحكم، يعني كل حاجة هتكون جاهزة معايا.

عاتبتها حين أكملت ارتداء ملابسها ثم اتجهت نحوها لتقبل رأسها قائلة:

•المهم تذاكري وما ارجعش الاقيكي معاه على التليفون زي كل يوم يا عيوني.

تأففت (فرحة) خجلًا مغمغمة لكنها بالفعل عاشقة للفتى كما يعشقها تمامًا إلا أن ضميرها الحي يقسو عليها ويعتصرها حد الألم لجهود والدتها المُضنية.

غادرت (غزال) بعد أن وضعت غطاء رأسها متحمسة لتخطي أفضل بضع ثوانٍ في يومها، وهو وقت مرورها على دكان (الشهم) كما تحب أن تلقبه، جذبت نفسًا عميقًا لتستحضر كامل أنوثتها ثم انطلقت تتهادى في الطريق مدعية اللامبالاة في حين أن قلبها الذي يشبه قلب فتاةٍ مراهقة، قفز في مكانه فرحًا عندما لمحته يراقبها سرًّا بطرفي عينيه، كادت تتخطاه وتنتهي من فقرتها اليومية لكنها توقفت وقد جذب انتباهها ورقة بيضاء معلقة فوق الباب الخارجي، فالتفتت تتفحصها في هدوءٍ قارئة:

«مطلوب آنسة للعمل.. لديها خبرة في بيع الملابس.»

وقفت مترددة قليلًا لكنها عضت شفتها وانطلقت خلف شيطانها بإرادتها تلك المرة، فتحركت قدماها في خطواتٍ بطيئة نحو الدكان رغم استنكارها لأفعالها التي تناقض ما تسمو إليه لكنها استسلمت لرغبات قلبها وألقت السلام عليه في أدب مراقبة كيف اضطرب حاله واقفًا ليرد السلام، فسألته مباشرةً في صوتٍ خافت، لا تزال مضطربة هي الأخرى من جرأتها الغير متوقعة:

• انت طالب حد يشتغل؟ وعادي لو مش آنسة؟

لم تدرك سبب ارتباك (نبيل) لكن قلبها فسر اضطرابه ونظراته القلقة حولهما بوجود إعجابٍ ومشاعر مشتركة، ربما وقع في غرامٍ صامت مثلها، ابتسمت وقد بدأ عقلها في نسج تخيلات حالمة.

•انتي بتعرفي في مجال الملابس؟

سأل في نبرته الهادئة المستغربة رغم احمرار أذنيه الذي أفشى عن توتره الداخلي، فبدا كمن يراقب شخصًا في صمتٍ دون أن يتوقع اقترابه ليخطو الخطوة الأولى.

•لا بس باعرف أبيع أي حاجة.

شعرت بتوترٍ وخجلٍ عندما قالت تلك الكلمات دون سببٍ واضح لكنه أومأ مشيرًا للداخل ثم قال:

•وماله نجرب يا (غزال).

لمعت عيناها في سعادةٍ خفية لمعرفته السابقة لاسمها، وزاد من سعادتها أنه نادرًا ما يناديها أحدهم (غزال).. وكأن الجميع يكتفي بها كـ (أم فرحة) في حياته.

*****

خرجت (غزال) هذا اليوم بعدما تأكدت من فوزها بالعمل في الدكان، اتجهت إلى الحاج (إسماعيل) الذي وافق على إقراضها أمس مبلغًا من المال سيساعدها في تزويج ابنتها، دخلت مكتبه مرحبة ثم قالت:

•السلام عليكم يا (حاج إسماعيل).

•عليكم السلام يا (أم فرحة).. أخبارك ايه؟

•بخير طول ما انت بخير، مش هطول عليك، أنا عارفة الوقت اتأخر، لكن انت كنت قايل اعدي عليك عشان الفلوس ولا غيرت رأيك؟

أردفت مسرعة في رهبة غير قادرة على جذب نفسٍ آخر خوفًا من أن يلغي عرضه لكنها تنفست في راحةٍ عندما وقف متجهًا نحو خزانةٍ صغيرة ليأخذ منها بعض الأموال ثم وضعها في حقيبةٍ بلاستيكية سوداء اللون مؤكدًا:

•عيب عليكي يا (أم فرحة).. الفلوس اهيه، ربنا يفرحك بيها.

أمسكت الحقيبة في سعادة لكنه أوقفها متمتمًا في حرج:

•الأول لازم تمضيلي بالفلوس دي من غير زعل عشان دي فلوس عيالي، وأنا لازم أضمن حقهم.

فكرت بضع دقائق، تشعر بالقلق وعقلها يحاول منعها لكنها قررت المجازفة وأخبرته قائلة:

•حقك يا حاج (إسماعيل) بس اكتب في الورقة اني هبدأ التسديد بعد الفرح.

•وانا موافق، امضي على وصل الأمانة ده وده.

حركت رأسها واحتضنت أناملها المتلهفة القلم لتوقع باسمها في المكان الذي أشار إليه، فيمكنها أن تضحي بآخر أنفاسها حتى تضمن لفتاتها

حياة سعيدة.

*****

بعد مرور شهرٍ على عملها لدى (نبيل) دخلت (غزال) الدكان بعدما تأخرت عن موعد عملها لمدة ساعة كاملة، شملت المحل بنظرة سريعة باحثةً عنه، فوجدته في نهايته يعلق بعض الملابس وملامح وجه الواجمة تعبر عن الاختناق والضيق، اقتربت متوترة من رد فعله الذي لا تزال تجهل معظمه، فهي لم تفعل ما يثير غضبه أو انزعاجه من قبل، بل كانت حريصة على تلبية كل ما يأمرها به، وفي المقابل كان يعاملها معاملة حسنة طوال فترة عملها، فركت أصابعها في توترٍ لتجذب انتباهه بقولها المتلعثم:

•اسطى (نبيل).

التفت (نبيل) نحوها، وكاد يمطرها بسيلٍ من الكلمات الغاضبة مزمجرًا، والذي كان يجهل أسبابه، فهل السبب هو تأخرها الذي يحدث للمرة الأولى، أم أنه نابع من الجزء الخفي داخله، والذي كان يتلوى منذ فتح عينيه صباحًا لرؤيتها؟! ابتسم ساخرًا من نفسه بعدما أدرك مدى إدمانه لها ولوجودها حوله، في البداية كان يخشاها، يخشى قربها، يخشى نواياها والأسرار المختبئة خلف أهدابها لكنه مع مرور الوقت بدأ يتأكد من خطأ معتقداته فيما يخص دخولها المدوي إلى حياته، حاول إخفاء الاضطرابات التي تختلجه، والتي كانت

(هي) سببًا لها منذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها أمام عينيه، ومنذ ذلك اليوم تقتلع حواسه الواحدة تلو الأخرى كلما مرت عليه، وكم كان ساذجًا حين اعتقد أنه بإبقائها أسفل قبضته، سيتمكن من السيطرة على مشاعره المثارة نحوها وعليها لكنه وجد نفسه غارقًا في شوقه كل يوم حتى يراها ويحادثها مع اختطاف بعض النظرات إليها حين تتمايل أمامه بجسدها المنحوت على خطى تماثيل اليونان أثناء انغماسها في العمل غافية عن تصرفاته الصبيانية، ودون شك كانت تلك النظرات هي الوقود الذي ألهب مشاعره وأفكاره تجاهها لتحثه على فعل أفعالٍ مجنونة ليطفئ نيران شوقه إليها، ابتلع ريقه محاولاً التمسك بثباته ومحض خيالاته الحارة، فقال في صوتٍ يميل للحدة والانفعال:

•اتأخرتي ليه؟ متأخرة ساعة كاملة!

•آسفة.. كنت مع بنتي، بنشتري شوية حاجات لجهازها.

رمقها بنظرة غامضة، جهلت تفسيرها حين مرر بصره على جسدها، ولأول مرة تشعر بانفلات ثباته وهدوئه عندما ثبتت نظراته فوق صدرها الذي كان يعلو ويهبط في وتيرةٍ سريعة قائلًا:

•هي بنتك على وش جواز؟

هزت رأسها وقد قطبت جبينها قائلة:

•أيوه، معقول مش عارف، ده الناس كلها عارفة، شكلك ما تعرفنيش

كويس.

كانت جملتها الأخيرة ممازحة، فاستغربت من الارتباك البادي على محياه ثم عاد بجسده نحو الملابس ليستكمل ترتيبها مجيبًا:

•مكنتش فاكر ان عندك بنت على وش جواز، شكلك أصغر، ما يديش سنك الحقيقي.

انتفخت أنوثتها فخرًا حينما خرجت تلك الكلمات من فمه، وارتوت مشاعرها بسيلٍ من السعادة، وقد أعاد مديحه أحاسيس قد دفنتها، أما عن (نبيل) فقد عض لسانه كأنه يعاقب ذاته على فعلٍ خرج منه سهوًا دون سيطرة، فحاول تدارك الموقف مردفًا:

•أقصد إنك عارفة اني مش بحب أختلط بالناس ولا أحشر نفسي باللي بيحصل في الشارع ومع سكانه.

هزت رأسها مبتسمة في دلالٍ حينما عاد ببصره الحائر نحوها محاولًا استكشاف رد فعلها، فشعر كمراهقٍ ألقى بغزله ووقف منتظرًا رد فعلٍ معين ليهدأ قلبه الملتاع، اقتربت (غزال) منه في خطواتٍ هادئة ثم مالت دون قصد، أو ربما عن قصد، هي حقًّا لا تهتم، كل ما تعرفه هو أن هناك أجنحه طير صغيرة تدغدغ أروقة قلبها دافعةً هذا الغزال الشارد لجذب انتباه جميع من حوله بجماله الفريد، ولأول مرة تسعد بسبب جمالها، الذي يُفتتن به أعتى الرجال، تعلم نقاط قوتها وتجيد اللعب على أوتارها لكن في حدود.. حدود تعيد رسمها من جديد بعد

أن أقسمت أنها لن تحيد عن ذلك الخط الذي رسمته من قبل عندما استطاعت الهرب من حياةٍ ذاقت فيها الكثير، ارتفعت درجة حرارة المكان وشعر بعدم الارتياح حين تابع خطواتها ثم مد يده ليفرك وجهه في قوة محاولًا استنشاق بعض الهواء ليهدئ به ثورة مشاعره داخل صدره.. (غزال) تلك قد أصابته بعجزٍ فكري، يجعله يتبعها في كل لحظة، يتربص بها ويحلل أدق انفعالاتها وتفاصيلها كمحللٍ سياسيٍّ صامت، وضعته قوى أحادية القطب مرتابة من ميل النسق للثنائية، انغمس في تفاصيل جسدها وملامحها التي كانت تجذبه للغرق فيها، فشعر كأنه على حافة الهاوية، و(غزال) هي من أوقعته من فوقها، استدار في انفعالٍ ممسكًا بالثياب بين قبضتيه ليغلق عينيه بينما حاول الابتعاد عنها وعن دائرتها الخطرة، وقبل أن يخطو خطوة واحدة، كانت هي تسبقه واضعةً يدها فوق الملابس قائلة في صوتٍ ناعم، يثير اضطراب رجولته حتى كاد يفقده الوعي بعدما اختصرت المسافة بينهما عن قصدٍ قائلة:

• عنك يا سي (نبيل).. أنا هرجعهم مكانهم.

ساد الصمت بينهما في لحظةٍ عابرة كأنها دقائق طويلة، ودارت معركة من النظرات بين أعينهما بينما احتفظ لسان كلاها بما يكنه خلف أسوار مشاعرهما العالية، أسوار لن تُهدم إلا في لحظة مصيرية، يستفيق فيها كلاهما على واقعٍ خالٍ من الأقنعة الزائفة، وفي خضم

هذا الصراع المحتد، كان (نبيل) أول المتقهقرين حين ترك الملابس ثم خرج هاربًا من مكان عمله.

*****

استمرت (غزال) في العمل لدى (نبيل) في الفترة المسائية مباشرةً بعد أذان المغرب، وقد مرت عليهما الشهور كالسحر دون شعور، فالإعجاب والمشاعر المشتعلة بينهما أصبحت أعمق ومُلحة من الجانبين، فكانت تقضي أيامها كالمراهقة، تغزل حياة وردية كزوجةٍ له في خيالها دون إنكارٍ أنها تعمدت التلاعب به والتمايل والدلال أمامه كلما كانا بمفردهما شاعرةً بالرضا كلما رأت الهيام في عينيه، فقد استغرق (نبيل) وقتًا طويلًا قبل أن تسقط دفاعه ليسقط في شباكها، لا تتذكر يومًا أنها رغبت في اهتمام رجلٍ بها كـ (نبيل) لكنه كان دومًا حذرًا، يخشى الاقتراب منها كأنها نار ستحرقه، أسقطها في حالةٍ من التخبط، فقد كانت عيناه الشاردتان نحوها حين تصطنع عدم الانتباه لأفعاله، تؤكد محبته واهتمامه بينما كانت أفعاله وتوتره في حضورها كأنها تقوم بعمل فخٍّ للإيقاع به، يجعلها تتساءل عن يقينها هذا.. وربما كان حدسه على صواب.. لكنه فخ لطيف سينعم فيه بالراحة والنعيم، ترجو فقط أن يستسلم لمشاعره الوليدة بينهما ويتزوجها بالفعل.. متيقنة أنها على السبيل الصحيح لكسبه، والدليل أن طائرها الحائر صار أكثر ثباتًا، فيُخيل لها أنه أصبح يتعمد الاقتراب منها والتحدث

معها دون توقف، تنهدت وسط أحلام يقظتها وتحركت داخل غرفة تبديل الملابس لتلتقط العلاقات الحديدية لكنها شهقت عندما وقف (نبيل) على بابها يحتجزها بطوله الفارع داخلها، فاحمر وجهها خجلًا واضطربت في توترٍ متمتمة:

•في ايه؟

مرت عيناه في جرأةٍ فوق جسدها قبل أن يخبرها في هدوءٍ مشيرًا إلى جسدها السفلي:

•العباية دي مش مجسمة أكتر من اللازم؟

ما الرد المناسب لهذا السؤال، في الغالب ردها الأوحد لتطاول أحد الرجال سيكون بخلع حذائها وطبع نعله فوق رأسه.. لكن هذا التطاول مُحبب للقلب الذي أعلن طبول الحرب بين ضلوعها، فوجدت نفسها تعود لخدع لم تتعلم سواها في حياتها السابقة هامسةً في غنج:

•وفيها ايه، محدش هياخد باله.

•أومال أنا خدت بالي ازاي؟!

قال ساخرًا رغم انحسار أنفاسه حين راقب استمرارها في نزع العَلَاقَات قبل أن تتحرك لتجبره على الابتعاد بنظرةٍ حارقة من عينيها السوداوين متمتمة في رضا:

•عشان انت اللي مركز زيادة عن اللازم.

علت دقات قلبها عندما مد ذراعه القوي ليوقف تخطيها له قبل أن

يميل نحو أذنها هامسًا في صوتٍ خشن:

•ولما انتي عارفة، تعباني معاكي ليه يا (غزال)؟

نظرت نحوه في تعجبٍ من سؤاله لكن قلبها الأحمق تجاهل الإنذارات المحذرة في عقلها، وغرقت في مشاعره المبعثرة من عينيه نحوها، كاد يميل كي يقبلها في منتصف المكان دون عناية بالمكان أو الزمان كالمسحور بفتنتها لكنها قفزت كأنما لدغها أحد العقارب لتبتعد عنه وقد ارتبكت خيالاتها واندمجت مع الواقع قائلة:

•ما يصحش كده يا اسطى (نبيل).

•أنا ما بقتش قادر على بعادك يا (غزال).

أغمضت جفونها في ضعفٍ، وصوته الحنون يولد الأمل داخلها، فكبحت ابتسامة كبيرة، تخفي خلفها حماستها بهذا الاعتراف.. فهو اعتراف ضمني بعشقه تمامًا كما تهواه هي الأخرى وتغرق في عشقه كل هذه الشهور.

•لما نتجوز الأول.

خرجت كلماتها تلقائيًّا لتصدمها لكن صدمتها تفاقمت عندما ابتعد عنها خطوتين كأنها بطلبها هذا قد كسرت سحر التعويذة بينهما، تغيرت ملامحه الحالمة وتجمدت ليردد كلماتها:

•اتجوزك؟!

استدارت لتطالعه في تعجبٍ وقد اختفت الابتسامة من وجهها إلا أن

قلبها الأحمق أصر على براءته من سوء ظنونها، فقالت:

•آه ليه لا؟

•لكن أنا متجوز.

شعرت أن الأرض تنشق أسفل قدميها، وعجزت عن إجابته، فتركت ما بيدها في حدة، واتجهت للمغادرة لكنه كان أسرع، تحرك ليبتلعها بين ذراعيه مؤكدًا:

•لا ما تسبنيش وتمشي يا (غزال).. أنا محتاجك جنبي، أنا متجوز آه بس مش بحبها، وهي في مكان وأنا في مكان، لكن مقدرش أتجوز عليها، دي أم عيالي.

أبعدت أصابعه عنها ليخرج من عينيها وميض أسود لبضع لحظات، أفقدها الاتصال مع الواقع ثم سألته مستنكره:

•أومال انت عايزني ازاي؟ في الحرام؟!

انفجر شاعرًا بانفلاتها من قبضتيه وفساد مخططه:

•ايه يعني! الله يرحم أيام (توفيق)!

ابتعدت خطوة للخلف كالمصعوقة، تشعر أن سحابة مظلمة عمت المكان وابتلعت كيانها لتخفيها من بين الجميع، حدقت عيناها المنفرجتان إلى (نبيل) رغم أنها لا ترى وجهه بوضوح، فملامحه صارت مبهمة، وبدت تائهة غير قادرة على الإتيان برد فعلٍ مناسب، وكأن كلماته قد انتقلت بها من العالم لتقذفها إلى الفضاء، فبقيت هناك عالقة.

هل تخدعها أذناها؟!

هل يتلاعب بها القدر ويلقي على مسمعها حروف اسمٍ تبغضه كأنه اسم من أبناء الشيطان؟!

لم تنتظر للتأكد، وقد أخذت طموحاتها وأمانيها تنهدم أمام بصرها، فدفعته بعيدًا عنها، لا تريد البقاء والاستماع، فكل كلمةٍ تخرج من فمه، تهدم حلمًا جميلًا وبيتًا حنونًا أسسته ونسجت أثاثه بخيوط أوهامٍ عالقة في عقلها.

*****

استفاقت (غزال) من ذكرياتها حين سمعت صوت باب العنبر لتتفاجأ بشروق النهار يائسة من الحصول على أي قدرٍ من النوم ثم انتبهت إلى الحارس الذي أخبرها في مللٍ قائلًا:

•قومي معايا.. دكتور (أيوب) مستنيكي.

أومأت في صمتٍ لتضع غطاء رأسها رغم معرفتها أن حالتها يرثى لها لكنها لم تكترث، فكل ما يزعجها أن الحلقتين السوداوين حول عينيها صارتا تحرق بشرتها كأنهما ترغبان في التحول إلى رماد!

دقائق وكانت داخل الغرفة الضيقة نفسها المثيرة للاختناق، والتي تجتمع فيها مع (أيوب) أو (الطبيب الفضولي) كما تحب أن تطلق عليه، فهو لا يمل ولا يكل رغم جلساتهما التي قد يسيطر عليها الصمت التام من جانبها لكنه في مراتٍ عديدة، ينجح في اختراق حواجزها

ونزع ما يريد سماعه منها، تهابه وتخشاه.. تعترف بهذا.. لكنها لا تملك تفسيرًا لذلك.. جلست أمامه متفحصة ملامحه المبهمة حتى حدثها قائلًا:

•صباح الخير يا (غزال).. نمتي كويس؟

أومأت نافية، فابتسم في صدقٍ قائلًا:

•بطلي تفكير زيادة وهتقدري تنامي بسهولة.

•صوت العياط.

أردفت في هدوءٍ، فانعقد حاجباه متعجبًا ثم قال:

•مش فاهم!

•في العنبر... عياط طول الليل.

مال ليستند فوق الطاولة كعادته عندما يصعب عليه فهم حديثها، واستطرد قائلًا:

•وانتي مش بتعيطي؟

اهتزت جفونها قبل أن تخفض بصرها، فحثها في هدوءٍ قائلًا:

•بتفكري في مين بليل؟

صمتت بضع لحظات قبل أن تلتقط عيناه في اتصالٍ مباشر، وتلقي على مسمعه ما يرغب في سماعه قائلة:

•نبيل.

•ندمانة انك قتلتيه؟

صمتت، فاستكمل ليدفعها للحديث قائلًا:

•كلميني عنك انتي و(نبيل) ولو انتي بتحبيه بالشكل ده، كان معاه حاجات ضدك يوم الجريمة ليه؟

انكمشت ملامحها في حزنٍ أزليٍّ، أصبح لا يفارقها.. اختارت الصمت وعدم عبور هذا الحاجز لكن لسانها كان له رأي آخر، فسمعت صوتها يدفع الحروف من فمها ويحملها معه إلى ذكريات، تتمنى الموت قبل الخوض فيها..

*****

رن هاتفها برقم (نبيل) للمرة الألف، فقد عكف على الاتصال بها يوميًّا منذ ما وقع بينهما لكنها لم تجبه، لا تزال مرتعبة من تصريحه، تشعر بعدم الأمان والتهديد والجنون، وأن كل هذه الحياة التي أسستها لها ولابنتها، تتمايل على الحافة في وجوده، أقنعت نفسها بأخذ أول رد فعلٍ نحوه منذ أيامٍ قليلة حين أرسلت لتخبره قرارها بترك العمل نهائيًّا، فقد هشم المثالية التي طالما وضعتها صوب عينيها عنه، اهتز هاتفها داخل كفها معلنًا وصول رسالة منه، فتحتها على مضض واتسعت عيناها حين شاهدت صورة بأوراق تحتوي رقم مبلغٍ مالي، تم التوقيع عليها باسمها.. أوراق الحاج (إسماعيل).. لمَ تلك الأوراق معه؟ ولماذا يرسلها إليها؟!

رفعت هاتفها دون تفكير لتحادثه، فأجابها سريعًا:

•لو أعرف انك هتردي بالطريقة دي، كنت بعتها من زمان.

•الورق بيعمل ايه معاك؟ وباعتهولي ليه؟!

سألت دون انتظار، فتنهد لتسمع بعض الأصوات حوله إلى أن اختفت بإغلاق الباب، فهدأت حركته تمامًا ليجيبها قائلًا:

•انتي متضايقة اني اشتريت الورق من الحاج (إسماعيل)؟

•اشتريته؟ وغرضك ايه منه؟!

طقطق لسانه في استنكارٍ ساخر ليخبرها قائلًا:

•وانا اللي كنت فاكرك هتفرحي وتشكريني عشان عايز أساعدك، ومش حابب انك تبقي تحت رحمة حد!

•أشكرك لو كان الورق ده معايا وفي إيدي، لكن انت جبته عشان أكون تحت رحمتك انت، مش كده؟

انتظرت لحظات قبل أن يردف مؤكدًا:

•ومالها رحمتي؟ مش احنا بنحب بعض؟!

•عايز ايه يا (نبيل)؟

سألته رافضة استمتاعه بلعبة القط والفأر، فأتتها الإجابة أسرع مما تتوقع:

•عايزك ومش عايز أسمع الكلام الأهبل بتاع مقدرش، وأظن أنا وانتي عارفين ان الجواز مستحيل.

سقطت عبراتها كالجمرات الحارقة فوق وجنتيها الشاحبتين ثم

همست قائلة:

•مقدرش، أنا تبت لله من ذنب كان غصب عني واتجبرت عليه ومستحيل أرجع تاني، ولو عايز تروح تسجني، اسجني مش هخاف.

•كده.. حلو يبقى ندخل بالتقيل.

•تقصد ايه؟

•دقايق والفيديوهات هتوصلك.

خُيل لها أن (توفيق) عاد من الموت لينهشها من جديد، فهتفت غاضبة:

•فيديوهات ايه؟ أنا مش فاضية للعب ده، الورق عندك والبوليس عندك، لكن نجاسة مش راجعة ليها!

أغلقت المكالمة، والغضب يتناثر من مقلتيها، لقد انقلبت الموازين ولم تعد تعلم إلى أي حالٍ ستنتهي! لكن النهاية خُطت مع وصول المقاطع إلى هاتفها ورؤيتها لها.

*****

•والفيديوهات وصلت تحت ايده ازاي؟!

كان هذا سؤال (أيوب) لها، فانتبهت أنها لا تزال بين جدران سجنها النفسي.

•ابن عمه كان زبون عندي، عنده داء انه يسجل لكل بنات الليل اللي عدوا من تحت ايده، وللأسف أنا من ضمن اللي عششوا في دماغه وفضل محتفظ بيهم.. (نبيل) اتعرف عليا عشان كان في

سهرة صادف وجودي فيها كرفيقة لابن عمه.

•ولما الفيديوهات وصلتك حصل ايه؟

أجابت في استهزاءٍ غلب عليه القهر:

•كسرني باني لو مطاوعتوش هيفضحني قدام بنتي ونسايبها.

*****

دخلت (غزال) إلى دكان (نبيل) في حالةٍ من الاضطراب النفسي والجنون بعد أن شاهدت ما أرسله إليها، كانت ساقاها تحملها بأعجوبة لتتحرك من تلقاء نفسها نحوه، عقلها واقف عن العمل، لا يشير بالصواب أو الخطأ فيما تنوي فعله، فهي ترى أن أفضل الحلول تتمثل في مناشدة رحمته لكن بؤرة خفية داخلها كانت ترفض خائفة منها وتتهمها بالجنون، ومن ذلك الذي ظهر فجأة محدثًا تصدعات قوية في معتقدات آمنت بها، وقع بصرها عليه حين قام بعدّ الأموال واضعًا إياها داخل مكتبه في آخر زاوية في المكان، لقد كان قاصدًا تجاهلها رغم تأهب كل حواسه نحوها ليرتدي قناعًا جديدًا سيصدمها بجزءٍ مما كان يحجبه عنها، طال صمتها حين وقفت هكذا دون أن تفعل شيئًا، فبدت كطفلٍ صغير، لم يعرف أبجديات الحديث.. تعلم أن الخطأ والذنب يقعان على عاتقها تلك المرة لكن كل ما تتمناه هو انتهاء هذا الكابوس البشع، عنفت نفسها لرغبتها في تحدي قدرها منذ البداية، فالوحدة هي سبيلها، وأفضل من رجالٍ خائنة، تقودهم

الشهوة.

قرر (نبيل) قطع هذا الصمت بقوله الذي أثار غضب وثورة مشاعرها بعدما كانت في حالةٍ من التخبط والاضطراب.

•كنت عارف إنك هتيجي برجلك، أصل لا مؤاخذة اللي داق الطعم ده ميعرفش يبعد عنه.

هتفت مدافعة كأنها تزيل وصمة عار جديدة عنها، وتدافع عن توبة قد نقضتها أولًا:

•لا يا (نبيل).. أنا تبت من زمان، وعلى جثتي أرجع للطريق ده.

رغم غضبه من حديثها إلا أن تلك الشراسة الغريبة، أثارت جنونه ورغبته فيها أكثر مستمتعًا بتحولها من قطةٍ وديعة، أذابت بنظراتها عقله إلى أخرى متوحشة مفعمة بالطاقة مستعدة لاقتلاع عينيه، ابتسم ساخرًا غير مصدق إصرارها على التمسك بثوب العفة والطهارة، فأي طهارةٍ تتحدث عنها؟! لقد تعرف إليها منذ لمحها، تذكرها كـ (غزال) التي سرقت لب الرجال في مدينته الأم حيث تقبع زوجته وأبناؤها.. تلك الشمطاء التي جعلته يتجه لبدء العمل في محافظةٍ أخرى، فقط ليبتعد عن إحباطها وكآبتها، ومن تهديداتها المستمرة بإخبار أطفاله عن خيانته لها، أجل، إنه خائن كي يشعر برجولته التي سرقتها منه منذ سنوات حين أجبرته على توقيع تنازل عن ممتلكاته وحضانة أبنائه إن فكر في تطليقها أو الزواج عليها مجددًا، كان ينتقم

منها على طريقته بتنقله بين النساء حتى أثارت (غزال) جنونه، وجعلته لا يرغب في امرأةٍ سواها، خرج من أفكاره ناقمًا على (غزال) وصنف النساء، فلن يتلاعبن به أكثر، هتف في حنقٍ دون أن يكترث لكسر قلبها:

•انتي جاية ترسمي الفضيلة عليا!

جففت دموعها شاعرة بالقهر حين قرأت ما يجول في خاطره لكنها تشجعت قائلة في توسلٍ طفيف:

•سيبني في حالي يا اسطى (نبيل).. أنا عندي بنت على وش جواز.

•حلو وبنتك اللي على وش جواز دي، خايف على سمعتها، عشان منفذش اللي في دماغي.

تمنت في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعها، أو تصعد روحها إلى السماء، وتنتهي حياتها، فلا مجال لصدماتٍ جديدة، تعيدها لطريقٍ استطاعت الهرب منه قديمًا بأعجوبة، فزمجرت مهددة:

•اسمع لو ما بعدتش عني، هاروح لمراتك واقولها.

في لحظةٍ واحدة، اختصر تلك المسافة بينهما ممسكًا بها في عنف، فخرجت حروف كلماته لتحمل بين طياتها آلاف التهديدات حتى ندمت أنها تفوهت بحديثها الأهوج.

•اعملي كده، وأنا مش هاخلي فضيحتك لبنتك، لا ده أنا هخليها مباشر وللكل، وهنزلها على النت وببلاش للشباب.

ارتعشت وقد سرت قشعريرة في جسدها، فاهتزت لتتفحص ملامحه الحادة القاسية، لفحت أنفاسه الكريهة المحملة برائحة الماضي والخمور - التي أدمنها (توفيق) - وجهها، إنه ماضٍ لن يتركها حتى مماتها، فلا فرار من ماضٍ كوصمة العار، بللت طرف شفتيها بعدما هربت الكلمات منها، وضاق حلقها كحال صدرها الضيق، فشعرت كأن الدكان يغلق جدرانه عليها منذرًا بأنها النهاية، فهمست بآخر محاولاتها البائسة:

•طيب سيبني لحد ما أجوز البنت.

أوقف إجابته وأنقذها دخول رجلٍ، تعرفت إليه فور رؤيته رغم تغير ملامحه للأقبح، فعقلها السادي لا يمنحها خيار محو وجوههم القبيحة منه أبدًا، انتفضت مبتعدة عن كلاهما في ذعرٍ ثم فرت هاربة من أمامهما لتحيط جسدها بيدها كأنهما بنظراتهما يجردانها من ثيابها فعلًا.

•أنا شايف ان موضوعك شغال زي الفل، وانت مش عامل حساب لاتفاقنا.

ود (نبيل) الصراخ حتى يبتعد عنه بعدما تجرأت عليه (غزال) بوقاحة (من وجهة نظره) لكنه متأكد من اقتراب خضوعها، بالتأكيد لن يخبر قريبه بذلك، فهو لن يتشاركها أبدًا، فأخبره في حنقٍ طفيف قائلًا:

•اهدا، هي كانت هنا عشان تترجاني اسيبها.

•ماشي، بس لو عرفت انك أخدتها لوحدك هزعلك مني، ما اهو أنا مطلعتش الفيديوهات دي ببلاش، انت عارف أنا فرغت كام فلاشه عشان اوصلها.

أخبره وقد انتفخ صدره كأنه يتفاخر بكثرة ذنوبه.

•عارف وكنت متأكد انك ما مسحتهاش لأن ليلة مع (غزال) ما ينفعش تتمسح أبدًا.

شعر (نبيل) بالحنق ليسأل في انفعالٍ قائلًا:

•تاخد فلوس وتبعد عن دماغي؟

أومأ الآخر رافضًا ثم ابتسم في استفزاز، وقد التمعت عيناه بوميض الشهوة قائلًا:

•لا هي، هي أحسن من الفلوس ألف مرة.

*****

•وعملتي ايه؟ طاوعتيه؟

خرجت من بؤرتها حين سمعت صوت (أيوب) الملح في اهتمام واضح، ونظراته التي لم تخلُ من الشك، فأخفضت بصرها خجلًا مما آل إليه حالها ثم قالت:

•رحت له لكن مسلمتهوش نفسي.

•وهو وافق؟

•ساومته.. كان فاضل على فرح بنتي ٣ شهور، اتفقت معاه انه يديني فرصة أجوزها في مقابل ان يوم الفرح بليل هكون عنده.

أخذت دموعها تتسابق في السقوط حين أخبرته في صوتٍ يتخلله البكاء:

•أنا محبتش في حياتي قده، ومتأكدة ان هو كمان بيحبني.. لكن العقاب كان لازم يكون.

همست في نبرةٍ مبحوحة حزينة كأنها تشكو همومها لمُسببها، ففرك (أيوب) ذقنه دون أن تحيد عيناه المتفحصتان عنها متسائلًا:

•عقاب مين؟

•المذنب.

المذنب دائم الخوف من العقاب.. من الرحيل.. من المقابلة.. عقاب الدنيا دائمًا أهون عنده من عقاب الآخرة، فكرت في مرارةٍ منهية الحديث شاردة عنه رغم إصراره على اقتلاع اعترافات بعينها، لم ولن تقوى على الإفصاح عنها، إلا أن شرودها الآن مختلف.. شرود يغلبه الهدوء والسكينة.. بعد أن أفلتت عبء ماضٍ وذنوب كتمتها كثيرًا كأنها بحكاياتها قد محت تلك الذنوب.. لقد أثار فيها (أيوب) الرهبة والخوف لأنه قادر على اختطافها من التخبط الذي تحاول الهرب إليه.. يجبرها على الانتباه إلى أن العاصي موعده مع (الدَّيْنُوْنَةِ) قريب..

*****

تجول (عزمي نصر الله) رئيس النيابة داخل غرفة مكتبه، وقد أثار فضوله محتوى التقرير الطبي المرسل من المصحة النفسية بحالة المتهمة (غزال محمد عطوة عثمان).. تابعت عيناه في تركيزٍ كلمات اللجنة التي تشكلت من ثلاثة أطباء نفسيين، لهم مركزهم وألقابهم المتعددة.

«نخبركم أن المتهمة (غزال محمد عطوة عثمان) المتهمة في القضية رقم (...) لسنة ٢٠٢٠ جنايات (...) المقيدة برقم (...) ضمن جنايات الإسكندرية، والتي وصلت إلينا في تاريخ ../../.... بناءً على الكتاب الوارد إلينا لفحص وعمل تقريرٍ طبيٍّ عن حالتها، فقد تم فحص المذكورة بمعرفة لجنة ثلاثية في المستشفى، وتم عمل التقرير الطبي النفسي المطلوب والمرفق بالأوراق حيث تبين لنا أن حالتها تستدعي حجزها لثبوت خللٍ نفسيٍّ حاد، لذلك نرسل إليكم التقرير الطبي النفسي الشرعي الخاص بالمتهمة المذكورة آنفًا للنظر واتخاذ ما يلزم.»

تحركت أنامله لتقلب الأوراق الثلاثة وقرأها في نهم متخطيًا كلمات (البرتوكول) وصولًا لرأي اللجنة:

مما سبق يتبين أن المتهمة (غزال محمد عطوة عثمان) مصابه - في الوقت الحالي ووقت الواقعة محل الاتهام - باضطرابٍ نفسيٍّ، يفقدها أو ينقصها الإدراك والاختيار وسلامة الإرادة والتمييز والحكم

الصائب على الأمور ومعرفة الصواب من الخطأ، فقد تم ثبوت - من خلال دراسة الحالة - تعلقها المَرضِي بالمجني عليه فيما يعرف بـ (متلازمة دي كليرامبو) أو (هوس العشق) وإصابتها بنوعٍ من أنواع الاضطراب النفسي، ينتج عنه تعرضها لنوباتٍ توهميه ارتيابية عنيفة مما يجعلها غير مسؤولة عن الاتهام المنسوب إليها في القضية رقم (..)..»

زفر قبل أن يستغفر اللّه دون أن يستكمل القراءة ثم التفت نحو سكرتير التحقيقات الجالس في مقعده الخاص ليخبره عن الحيرة التي تختلج أفكاره قائلًا:

•غريبة أوي، اهي الست دي بالذات كنت متأكد انها مش مريضة نفسيًّا!

•غريبة، ليه يا باشا؟! الست شكلها غلبان، ومن ضمن التحقيقات مع جيرانها في المنطقة وشغلها، عرفنا انها شخصية هادية وفي حالها ومفيش حد قال انه شاف منها أي حاجة وحشة.

•ده في حد ذاته كان مخلي حدسي متأكد مية في المية انها عاقلة.

صمت قليلًا قبل أن يتنهد مقررًا الامتثال للقرار بين يديه:

•افتح المحضر يا ابني.

تابعه ليقلب الأوراق ممسكًا بالقلم بين أصابعه، فاستكمل قائلًا:

•«تحال القضية إلى محكمة الجنايات للنظر إليها مع المطالبة

بتطبيق أقصى عقوبة على المتهمة (غزال محمد عطوة).»

*****

مرت مدة الإجراءات القانونية على (غزال) كالوميض رغم اتخاذها لمسارها ووقتها الطبيعي الروتيني الطويل، والتي انتهت بصدور حكم المحكمة بإيداع (غزال محمد عطوة عثمان) أحد مستشفيات الصحة النفسية والعقلية للعلاج، خرجت (غزال) بين رجال الشرطة والمتهمين وصرخات ذويهم وتوصياتهم المتبادلة وسط الأروقة استعدادًا لترحيل كلٍّ منهم إلى جهته، هاجمتها شراسة المشاعر المنفجرة داخل الدائرة المحيطة بهم من حزنٍ وندمٍ وألم، انتبهت حواسها إلى صوتٍ عالٍ وصوتٍ آخر مألوف، يحاولان لفت انتباهها، فضمت يديها المكبلتين نحو صدرها كأنها تخفيهما عن أعينهما حين تعرفت إليهما، أرادت الاختباء عن أعينهما المُحبة الحنون، ونبرة واحدة حزينة تناديها، حملت مدى قهرها رغم ما عايشته بسبب أفعالها، قفز قلب (غزال) ما بين شوقٍ وحنينٍ إليها، وتمنت ضمها مرة أخيرة بعينيها وبين ذراعيها كما تمنت وضع رأسها فوق صدرها لتطلب منها الغفران لكن لم يتحمل قلبها رؤيتها، ورفضت عيناها أن تحيد عن نقطةٍ وهمية، وضعتها صوب الأمام حين زادت خطواتها مع الشرطي الذي يسب ويلعن وجوده بين الجموع المتلهفة للقاء، كانت تحارب الزمن والأجساد المتلاطمة حولها حتى أنها ركضت نحو السيارة لتحتمي من

سماع الحزن والحب الذي لا تستحقه منها لكنه لا يزال ينبثق من نبرتها، لقد خذلتها قبل أن تخذل نفسها والجميع، تساقطت دموعها وأسرعت تجففها بغطاء رأسها، اتسعت عيناها لحظة قبل أن تغلقها في ذعرٍ هاربة من الصوت الذي أخذ يعلو من الخارج وسط الزحام رافضة الاستسلام والمغادرة حتى تجيبها، وضعت (غزال) كفيها قدر الإمكان حول رأسها، تحاول غلق أذنيها عن توسلاتها الحارة، تجاهلها من حولها رغم صوت أنينها الخافت المنذر بدخولها في انهيارٍ مُحتمل، استمرت في المحاربة للوصول إلى تلك الزاوية المُستكينة، والتي تخفيها عن أعين الجميع، كما فعلت داخل أرجاء المحكمة لكنها تمنع دخولها مجددًا كأنها قد استنفدتها رافضة إعادتها تحت ظلال حمايتها بينما كان لسان حالها لا يتوقف عن الترديد الصامت:

•مش هشوفها، أرجوكم خلوها تمشي، مش عايزة أشوفها، ما استحقش أشوفها، أنا لعنة بين الجميع!

علا صوت سيدة بجوارها لتخبرها في انزعاجٍ وشيءٍ من الجمود قائلة:

•بطلي صريخ، احنا مشينا في الطريق، كفاية ندم، كلنا أصلًا مذنبين.

صدقتها.. صمتت ولم تعلق.. لكن جسدها كان يرتعش دون توقف لمدة طويلة لتخفي رأسها بين كفيها كنعامة استشعرت الخطر، فتخشى

الخروج إلى الضوء ومتابعة القادم من بعيد، لم تكن تعرف هل كان الصوت يقترب بالفعل أم أن الأوهام تكتنفها! وهذا الصوت الخافت منذ البداية ما هو إلا خيال! استمر عقلها في ضجيجه رغم أنها صمتت كثيرًا حتى هدأت من تلقاء نفسها حين سمعت صوت الذبذبات والتحركات فوق الطريق العام، نظرت حولها في غير تصديق..

انتهى الأمر.. انتهى أخيرًا..

التقطت نفسًا عميقًا ثم عادت للخلف لتستند برأسها فوق الصفيح المهتز، تشعر بالهدوء والسلام.

*****

•كمل يا عم الحكاية، ما تبقاش سخيف.

وجه الشرطي حديثه إلى الحارس الجالس أمام بوابة المصحة بينما كانا ينتظران عودة الحارس الآخر من الصلاة بمفاتيح السلاسل الغليظة.

•لا هات سيجارة الأول، دي حكاية ولا حكايات ألف ليلة وليلة، وأنا دماغي بتلف من الصداع.

أصر (صابر) في عنجهية رافضًا التكلم وإشباع ظمأ فضوله لكنه وقف سريعًا عندما لمح الطبيب (أيوب) المغادر، والذي تحرك نحوهما في خطواتٍ ثابتة ليلقي السلام واقفًا أمام (غزال) الجالسة بجوار الشرطي، وإلقاء التحية مع بعض الكلمات على مسمعها.

ابتسم (أيوب) وقد شعر برؤيتها نجاح محاميها في تقديم طلب بعودتها إلى المصحة النفسية نفسها وطبيبها المعالج لأنه الأكثر دراية بطبيعة حالتها، وقبول الطلب من قِبل المحكمة، ومما زاد احترامه له إدراكه أنه مُعين من قبل النيابة العامة، سعيدًا لأنه بذل مجهودًا في البحث عن الأفضل لها داخل رحلته الشبه أحادية، دونها مع الإجراءات القانونية، التفت نحو الحارس متسائلًا:

•انتم واقفين ليه كده؟

•منتظرين المفتاح، وأنا مش همشي من هنا لحد ما يتم الاستلام، وتدخل المبنى قدام عيني، دي مسؤولية.

قال الشرطي في إصرارٍ كأنه يستعد للمواجهة إن طلب منه الطبيب المغادرة لكنه تفاجأ به يومئ في صمتٍ قبل أن يتجه للرحيل متمتمًا:

•عن إذنكم.

•دكتور (أيوب).

أوقفه صوت (صابر) الذي ركض نحوه كي يحادثه راجيًا:

•بالله عليك ما تقول للإدارة.. (عماد) بيصلي ونسي يسيب المفاتيح لكن كلها دقايق وهيرجع، وان شاء الله مش هتتكرر تاني.

أومأ (أيوب) ليلقي نظرة نحو (غزال) الهائمة في عالمها الخاص، متأكد أنها لن تنوي الفرار حتى وإن فُتحت الأبواب على مصاريعها.

تأفف الشرطي المنزعج حين رحل (أيوب) واستمر في ضغطه على

الحارس كي يطفئ فضوله المثار نحو تلك المرأة القابعة بجواره، فأخرج علبة سجائره ليمنحها إياه مطالبًا:

•اتفضل كلها، احكي وخلصني.

اتسعت ابتسامة (صابر) ليخرج إحداها ويشعلها ثم قال:

•حيث كده، تعالى نعمل كوبايتين شاي يعدلوا المزاج.

جاوره دون تعليق سعيدًا لأن سمو العم (صابر) سيكمل أخيرًا حكاية المدعوة (غزال).

*****

مالت (غزال) برأسها نحو الجانب قليلًا، وقد أصابها ألم خفيف أسفل عنقها متجاهلة في صمتٍ تام ثرثرة الرجلين أمامها، وبالطبع محور النقاش كان عن قضيتها.

تنهدت في حنق لأنها دائمًا تجذب الانتباه حتى في أسوأ أحوالها، فقد أثارت فضول الشرطي الذي أخذ يستطلع أي معلومات عنها وعن مرضها وما مرت به، ابتسمت لنفسها عندما شعرت بنظراته المشفقة، تمر فوق وجهها متأكدة أنها ستختفي عندما يصل العم (صابر) إلى نهاية الحكاية لكنها استمرت في صمتها، تدعي السكون مناشدة السلام داخلها، ظلت جفونها تُغلق وتُفتح من تلقاء نفسها كأنها تداعب أشعة الشمس الساطعة وتتحدى شدتها، لا تجد مسوغًا لانجذابها إلى حرارة الشمس لكنها تحمل داخلها راحة وطاقة غريبة

عنها، تنتقل من ملمس بشرتها لتستقر مباشرةً فوق قلبها، أغمضت عينيها مستسلمة لأي إيجابية تمتصها من أشعتها، شعرت باقتراب أحدهم، وتفاجأت عندما سمعت صوت الشرطي يحادثها حين عاد الحارس الآخر، وبدأ في فك السلاسل مع (صابر):

•شكلك بتحبي الشمس.

تخللت صوته الشفقة إلا أن تفكيرها كله كان مثبتًا فوق سؤالٍ واحد..

ألا توجد قوانين تمنع الاختلاط مع المرضى؟

ضاقت عيناها متوجسة من أفعاله لكنها تعمدت تجاهله والنظر بعيدًا منتظرة فتح البوابة للاختباء عن أي اهتمامٍ لكنه فاجأها بعرضه الذي هز كيانها:

•تحبي تكلمي بنتك في التليفون؟.. أنا عرفت ان عندك بنت واحدة، هي دي اللي هربتي منها لما حاولت تكلمك هي والست الكبيرة في المحكمة؟

استقامت منتفضة من مكانها في ذعر، علت أنفاسها تدريجيًا، تحاول السيطرة على انفعالاتها بينما استكمل قائلًا:

•انتي صعبانة عليا، وحابب اخدمك قبل ما تدخلي، جوا مفيش منفذ لأي طلبات.

تحرك خطوة نحوها، فابتعدت عنه مرتعبة، أوقفها برفع كفيه أمامه محاولًا تهدئتها متعجبًا من حدة ردود أفعالها، فقد أثارت (غزال)

اهتمامه وفضوله منذ أن رآها، فهي دومًا صامتة، هادئة، خائرة القوى، عيناها حزينتان، ولا تثير المتاعب كرفقائها، ناهيك عن فتنتها وجمالها الأخاذ، كل هذا خلق يقينًا داخله بأنها انتهت هنا ظلمًا، الأمر الذي دفعه لاكتشاف قصتها، والتي لم يبخل عليه بها العم (صابر) فقام بإلقاء كل ما في جعبته على مسمعه سواء كانت معلومة، وصل إليها العمال بالتلصص على حديثٍ سابق بينها وبين الطبيب أو بقراءة أوراق متبادلة بين الأطباء والإدارة.

أثارت حكايتها المُظلمة رغبة عميقة داخله في إسعادها لمحو تلك التعاسة الأزلية عن وجهها، فعزم على كسر بعض القوانين وإعطائها فرصة إنسانية بتركها تتحدث مع طفلتها على الهاتف، فربما ينجح حينها في رسم ابتسامة على ثغرها الوردي لكنه يندم الآن حين تابع الجنون والاتهام اللذين يشعان نحوه من عينيها كأنه شيطان جاء لإخراجها من النعيم.

•اهدي، أنا قصدي كان خير، على العموم أنا هسلمك وماشي.

أكد ليتحرك في خطواتٍ صغيرة نحو الخلف لكنه توقف حين أردفت قائلة:

•محدش بيعمل حاجة من غير مقابل، كُله له غرض، مفيش ملايكة على الأرض.

انعقد حاجبا الشرطي في ذهولٍ من التحول الدرامي في ردود أفعالها،

فقد تحولت من الذعر إلى الغضب في لحظةٍ خاطفة، التفت (غزال) كي تخفي ملامحها الواجمة، وانتظرت حتى أمسكها العم (صابر) ليساعدها في عبور البوابة لكنه قطع أفكارها باستفساره المُتعجب قائلًا:

•كان ممكن تكلمي بنتك بدل ما تضيعي فرصتك، يا عالم هتقضي هنا قد ايه!

تعلقت عيناها بملامح وجه الحارس الكبير، تراقب علامات الزمن ومدى إرهاق عينيه المُحلقتين بالهموم قبل أن تبتسم ابتسامة حقيقية، هي الأولى من نوعها منذ حضورها هامسة في خفوتٍ أثناء تحركها لعبور البوابة دون سابق إنذار.

•بنتي في الخليج مع جوزها، مفيش رصيد هيكفي.

جذبت نفسًا عميقًا في استرخاءٍ حين قالتها لتسمع تحذيرات الحارس (عماد) للعم (صابر) من خلفها ونعته لها بأنها شيطان يتخفى في صورة ملاك، مؤكدًا أن المظاهر دومًا خداعة، فتلك الغزالة الشاردة، قضت على روح إنسانٍ بـ (مِفَكّ صَلِيْبَةٓ).. أعادها عقلها رغمًا عنها إلى بريق هذه الآلة الحادة في يومٍ غير مجرى حياتها، وسيظل محفورًا في عقلها إلى الأبد.

*****

الاثنين ٢٠/ ٤/ ٢٠٢٠
الساعة ١:٠٠ صباحًا.
وقت وقوع الجريمة

•انت!

عندما طال تصلب (غزال) عند الباب دون أن يصدر منها أي رد فعل، ابتسم متسائلًا في مكر:

•مش هتدخليني ولا ايه؟

لم تجب، فقرر الدخول مستغلًّا صدمتها، دخل منزلها الصغير ليفقدها الأمان، استمر في التقدم نحوها مستمتعًا برجوعها للخلف ليحاصر خطواتها ثم قال متهكمًا:

•لقيتك مش بتردي على التليفون، قلت أجي بنفسي أفكرك بالاتفاق اللي كان بينا.

•وجودك هنا ميصحش.

لم تستطع نطق حروف اسمه وكأن عقلها قد تاه عن شخصه، حملت

نبرتها الذعر والتخبط المُثار داخل صدرها، فوقف في مكانه ناظرًا إلى الظلام من حولهما قبل أن ينفجر ضاحكًا على ما يراه مزحة سخيفة متسائلًا:

•وكان يصح انك تخلي بيا بعد ما عشمتيني يا غزال؟!

ظل يترنح نحوها مع حديثه دون توقف حتى اقتحم مساحتها الشخصية مزمجرًا في غضبٍ مكتوم، يزداد مع ازدياد صمتها قائلًا:

•ايه مبررك يا (غزال) الحُسن؟ بنتك وتجوزت وانتي ومش في بيتي ولا تحت طوعي، أفهم من كده انك رجعتي في كلامك؟

اتكأت على الحائط خلفها ثم أخبرته في صوتٍ مهزوز:

•أرجوك سيبني في حالي، اللي انت طالبه مني حرام ومش هقدر...

تأوهت (غزال) حين صفعها مانعًا إياها من أن تنهي جملتها ثم قبض على خصلات شعرها ساخرًا في جحود:

•حرام! انتي صدقتي نفسك؟ تعرفي ايه عن الحرام؟ دي حتى الفيديوهات تشهد عليكي!

اغرورقت عيناها بالدموع، وقد ألجمتها الصدمة، لا تتوقع منه كل هذا العنف والجحود، بعد كل هذا الحب الذي أغدقت به عليه.. وبعد كل هذه الشهور التي هامت فيها بخصاله الطيبة لكنها همست قائلة:

•حرام عليك، أنا مقدرش أعمل اللي انت عايزه مني!

تركها مبتعدًا عنها خطوة ثم رمقها من أعلاها إلى أسفلها في

اشمئزازٍ، ولقد عكست عيناه روحًا قبيحة، لم ترها من قبل، فكأنها تراه للمرة الأولى ثم سمعته يدس سمومه في أذنها قائلًا:

•لا تقدري وهتعملي، اوعي تكوني فكراني عيل صغير هتضحكي عليه، لا مش أنا، واللي عايزه منك هاخده بمزاجك أو غصب عنك.

شعرت بالتخبط والخوف يتملكان حواسها متسائلة؛ منذ متى داهم السواد كيان الشخص القابع أمامها؟! متى تلبسه هذا الشيطان الرجيم وصار لا يملك قلبًا كي يحب أو يُحب؟! وكيف وقعت ضحية بين أصابعه؟!

أنهت أفكارها بقولها الخافت:

•انت ليه بتعمل كده؟! أنا بحبك.

اقتربت منه وقد أجبرت قدميها على التحرك بصعوبة، تحاول مناشدة الرحمة والشخص الذي طالما رسمته داخل رأسها، تركها تلامس مرفقه في توسلٍ لكنه قابلها بنظرة حاقدة مملوءة بالقسوة التي يملكها داخل عدستيه الواسعتين، وقد بدا عليهما حالة الهذيان الغارق فيها، أو هكذا حاول خيالها المريض تفسير أفعاله الحمقاء ثم سمعته يخبرها في خشونةٍ قائلًا:

•بتحبيني يبقى تسمعي كلامي وتطاوعيني.

تركته يلمس وجنتها في حنوٍّ كاذب، يتناقض مع نبرته الساخرة، فاستسلمت لعبراتها الحزينة قائلةً في ضعف:

•أنا قلت لك اتجوزني وانت مش موافق.

•انتي هتعمليهم عليا ولا ايه، ولا انتي ناسية أصلك!

دفعها من جديد في عنف، وقد أغضبه حديثها المستمر عن الزواج، تابع في دفعها للخلف وكأنه يُرهبها، يُسلبها إرادتها ويغلفها بالرعب، ولم يتوقف حتى عندما حاولت أن تفسر ما حدث قائلة:

•كان غصب عني وانت عارف.

•حلو ودلوقتي كمان هيبقى غصب عنك.

أردف حين دفعها فوق الأريكة ليميل نحوها متعمدًا ملامسة جسدها الثلاثيني الناضج متجاهلًا محاولتها المستميتة لإبعاد أصابعه عنها متوسلة إليه في هستيريا قائلة:

•عشان خاطر ربنا ما تجبرنيش على حاجة تبت عنها من زمان.

•تبتي امتى؟ لما كنتي بتحومي حواليا في مكان أكل عيشي، ولا لما كنتي بتتخبطي فيا في الرايحة والجاية؟!

نجحت في إبعاده عنها والركض بأعجوبة حول الأثاث الضئيل، وقد ساعدها ترنحه الملحوظ بفعل ما يعاقره، سيطر على الأجواء صوت أنفاس كلاهما العالية استعدادًا لخوض معركة ضارية..

•لو مبعدتش عني هاصرخ وافضحك والحارة كلها هتعرف انك بتتهجم عليا.

•وماله صرخي وخلي كل الجيران تعرف انك فتاة ليل.

صمت ليبتلع ريقه ثم استكمل في مكرٍ للإمساك بها:

•اسمعي الكلام، أنا قاتل يا مقتول النهارده.

•انت مفيش في قلبك رحمة، فوق من اللي انت بتبلبعه ده.. أنا (غزال) حبيبتك!

قالت في صوتٍ منكسر، يعكس القهر والوجل المنبثقين من قلبها الممزق حين ركضت حول المكان..

•رحمة وحب؟! انتي ما تستحقيش الرحمة والحب، والدمعتين دول مش هيهزوني يا (غزال) لأن انتي اللي بدأتي اللعب ولازم تتحملي عواقب أفعالك.

صرخت ثم جرت لتحتمي بأول غرفة تقابلها لكنه كان أسرع عندما هجم عليها ليدفعها في قوة للأمام حتى فقدت توازنها واصطدمت بمقبض غرفة ابنتها الذي انخلع، قفز بجسده الضخم عليها دون اعتبار لحالتها التي تتراقص ما بين الوعي واللاوعي عازمًا على تمزيق ملابسها، فخرج منها أنين ضعيف، أسرع ليبتلعه بكفه الغليظ زاجرًا:

•اخرسي، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني، مفيش حاجة في الدنيا تقدر تنقذك مني.

كانت تلك الكلمات تصدح وتتكرر داخل رأسها لتلوث روحها في بطءٍ

لكنها كانت تسمعها على لسان شخصٍ آخر، سرق براءتها وأهان عفتها وسط الرجال.. ومن كان سببًا في عذابها الدائم، أغلقت جفونها في صعوبة، تحاول حث جسدها على استعادة الإدراك ثم تابعت خياله الأسود الذي جثم فوق صدرها حتى استجمعت عيناها رجلًا بلا ملامح بوجهٍ أسود كقلبه، يحاول تجريدها من إنسانيتها قبل ملابسها، صرخت أخيرًا في رعبٍ حقيقيٍّ، وقد تجلت ملامح الرجل، لا تعرف كيف أتتها القوة لدفعه عنها والتملص للخلف زاحفة بردفيها ومرفقيها للاختباء منه، وضعت كفيها فوق أذنيها، تئن في صمت، تشعر بنوبة من الهلع تتملك كيانها، وتابعت بقلبٍ ينتفض وعينين مذعورتين، كيف استقام وتحركت شفتاه كأنه يوبخها لكنها لم تسمع صوته، عكست عدستاها فزعًا حقيقيًّا عندما تحركت أصابعه نحو حزامه الجلدي الأسود السميك، وبحثت عيناها تلقائيًّا عن منفذ للنجاة حتى اختطفها بريق آلة حادة ملقاة خلفه أرضًا، كانت كل حواسها تحارب الظلام المتسرب داخلها من أجل البقاء، وقد رسخت آلية النجاة فكرة الصراع مجسدة في «مِفَكّ صَلِيْبَةْ».

اقتربت بجسدها من السلاح الصغير لكنه باغتها بركلة، سببت ألمًا في جانبها الأيسر وشلت حركتها، تراقصت رؤيتها بين الذهاب والمجيء من شدة الألم كما تتراقص الوجوه أمامها ليتبدل (نبيل) المطل عليها كالثور الأهوج إلى شخص (توفيق) الذي غادر الدنيا لكنه يرفض

ترك مقاليد مصيرها، شعرت أنه يجثو نحوها مبعدًا ساقيها في عنفٍ لتهرول تلقائيًّا إلى فقاعتها (المخبأ النفسي القديم) فعقلها يرفض مواجهة الواقع والاعتراف بأن هذا الوحش الكاسر الجاثم فوقها، والذي على وشك انتهاكها هو (نبيل)!

لا تدري كيف تفسر ما يحدث لها! أهي حالة عصبية أم نوبة من الهلع؟! كل ما تعرفه أن الواقع تجمد حولها ليحيط بها غموض اللون الأسود القاتم، صوت أنينها المرتعب، بدأ يخترق هالتها الغريبة من السكون، لقد كان أنينًا يعكس الذعر الصافي وأعلى درجات الرعب... ترى ما الذي تعاصره ليصل نحيبها إلى تلك المرحلة التي يتمزق لها نياط القلب ويجبرها على الخروج من فقاعتها شفقة على النفس المتروكة وحيدة وسط حروبها؟!

فتحت (غزال) جفونها لكنها لم ترَ (نبيل) في مرمى بصرها لكن الأنين لا يتوقف.. هذا الأنين حجر الدماء في عروقها.. اتسعت عيناها، تحاول الاعتدال، فوجدت جثمان (نبيل) ملقى بجوارها، وقد خرج من عنقه مقبض (المفك)..

•قتلته!

غطت فمها بكفيها وتحركت زاحفة للخلف حتى التصقت بالحائط، لا تصدق ما تراه عيناها..

•قتلته!

قتلته!

قتلته!

تلك المرة انتبهت إلى أن الكلمة لا تخرج من أعماقها فقط، ارتفعت عيناها إلى الأمام متخطية الجثمان، فتعلقت نظراتها المذعورة بابنتها المصدومة والجالسة فوق مقعد الصالون بثوب زفاف المُلطخ بالدماء، اهتز جسدها في عنفٍ لتتفحص الدماء المغطية لكفها اليمنى، خرجت من صدمتها بصفعة مدوية بيد القدر، فتحركت على كفيها وركبتيها نحو صغيرتها الهامسة:

•قتلته!

قتلته!

دون توقف، أمسكت (غزال) بكفيها لتجبرها على النظر نحوها محركة رأسها لليسار واليمين في حركةٍ عنيفة توحي بالرفض لتؤكد قائلة:

•لا.. لا يا (فرحة).. لا، انتي ما قتلتهوش، انتي العروسة، انتي ما قتلتهوش!

•أنا مش عروسة.. أنا اطلقت.. أنا.. أنا قتلته!

كانت (فرحة) تهذي متلعثمة، تكاد تفقد وعيها، لا تصدق أنها ارتكبت جريمة قتل، وأزهقت روحًا بيدها تلك، لكنها كانت مجبرة، ماذا ستفعل حين تجد باب منزلك مفتوحًا، فتدلف لترى رجلًا على

وشك الاعتداء على والدتك المغشي عليها؟!
رجلًا كان سببًا في دمار حياتها وإنهائها قبل أن تبدأ... إنه يستحق الموت.. لكنها لا تستحق أن يتحمل قلبها الرقيق رعب وذنب موته، شهقت باكية وسط اعتراضات والدتها ثم نظرت إلى عينيها العاكستين لصدمتها معاتبة:

•ليه عملتي كده يا ماما؟

•عملت ايه؟!

•أنا شفت الفيديوهات و....

توقفت الكلمات داخل حلقها، ترفض الخروج، فانهارت (غزال) تحت قدميها عازمة على الدفاع عن نفسها في نبرةٍ رغبت أن تخرج قوية لكنها خرجت ضعيفة مبحوحة قائلة:

•مظلومة.. أمك مظلومة يا (فرحة).. ما تصدقيش حتى لو شفتي بعنيكي.. أنا عمري ما أغضبت ربنا بإرادتي، طول عمر رقبتي تحت سكينة الدنيا وشياطينها.

•مفيش حد بيتجبر على حاجة زي دي.

قالت في نبرةٍ منخفضة، واتهامٍ طعن قلب (غزال) وأخرجه من مكانه:

•لا في.. في كل اللي تتخيليه من ظلم وإجبار، أنا اللي خبيت عنك الوحش وحطيتك بين رموش عنيا عشان أحميكي وأحمي مستقبلك

من نفسي قبل ما احميكي منهم.

قالت في حزنٍ لتحيط وجه طفلتها الباكي بكفيها، لم تنتظر (فرحة) لحظة أخرى، وارتمت بين ذراعي والدتها لتفرغ دموعها متمتمة وسط شهقاتها:

•خلاص يا ماما، مبقاش في فرحة ولا بقى في مستقبل.

أبعدتها (غزال) عنها، وقد تملكها الجنون مرددة:

•لا يا (فرحة).. هتفرحي.. هتعيشي وهيبقى في مستقبل غصب عنهم، مهما عملوا (فرحة) هتفضل فرحة أمها.

تقطعت نبرتها لتحوم بنظرها فوق ابنتها المحطمة، تتفحص الثوب وأصابعها الملطخة بدماءٍ قذرة، شعرت بغصة قوية قد سيطرت عليها كأن الزمن استشعر ضعفها، فقرر التلاعب بمصيرها ومضاعفة ميزان الألم، علا زئير الأمومة وصدح بين أضلعها رافضًا هوان نفسها الضعيفة الباحثة عن أي بؤرةٍ للاختفاء في مطالبة صريحة بقطع أي اتصالٍ عن واقعها الموجع.

•قومي معايا.

أخبرتها حين أجبرتها على الوقوف معها والدخول نحو المرحاض، بدأت في خلع الثوب عنها في سرعة كأن النيران ستشتعل به على جسد فتاتها بينما وقفت (فرحة) ساكنة خاضعة لأفعال والدتها التي تركتها لتفتح ماء الصنبور في حوض الاستحمام ثم دفعتها على مهلٍ آمرة:

•استحمي بسرعة، سمعاني يا (فرحة).. نضفي نفسك.

شهقت (فرحة) عندما صفعتها أمها لتعيد إليها الوعي ثم هتفت في حزمٍ قائلة:

•مش هاسمح لأي حد منهم يدمرك ويدمرني بيكي، ادخلي يا (فرحة).

حركت (فرحة) رأسها لأعلى ولأسفل دون وعيٍ وتحركت كالآلة تتوسط حوض الاستحمام لتخلع بقية ملابسها، وتترك للماء مهمة تطهيرها.

ركضت (غزال) إلى الخارج واتسعت عيناها عندما تأكدت ظنونها ورأت أن باب المنزل لا يزال مفتوحًا، ركضت مسرعة حتى أغلقته في هدوءٍ تام، وأحكمت غلقه بالمزلاج، منعت عينيها من الاستقرار فوق المَقْتُول متجاهلة رائحة الموت المشعة من قلب المكان، دارت عيناها حول المكان، تحاول استحضار تركيزها وسرعة التصرف، وقع بصرها فوق حقيبة ابنتها المبعثرة بالقرب من جثته، وشهقت حين رأت الدماء تقترب منها، هرولت نحوها لتجفف كفيها بردائها البيتي القطني في قوة، وحين تأكدت من نظافتها، بدأت بالتقاط الأغراض، طالعت جواز السفر والتذكرة ليجمع عقلها منحنيات خطتها! لملمت كل الأغراض في حذرٍ خشية أن تلامس الدماء ثم دلفت إلى المطبخ لتحضر بضعة أكياس سوداء كبيرة، وعادت إلى المرحاض حيث ابنتها القابعة في حوض الاستحمام، ترتعش من برودة المياه دون إصدار أي

صوتٍ أو اعتراض إلا اصطكاك أسنانها.

تولت (غزال) مهمة إخراج ابنتها، منحتها المنشفة ثم وضعت ثوب زفافها داخل الحقائب البلاستيكية، جذبت المنشفة المبللة التي انتهت منها (فرحة) وتحركت كي تمحو آثار الدماء على أرضية المرحاض، وخرجت تبحث عن أي آثار على طول الأرضية حتى وصلت أمام المقعد التي كانت تجلس عليه عقب ارتكابها الجريمة، أجبرت ساقيها على التحرك بجوار جثته حتى وصلت إلى (المفك) البارز من عنقه، لفت المنشفة حول مقبضه في حرصٍ شديد لتمحو البصمات دون إخراجه لتمنع نفسها من الاستسلام لشعورها بالغثيان، وحين انتهت وضعتها مع الثوب وأحكمت إغلاق الحقيبة عليهما واضعةً إياها أمام الباب، عزفت عن الذهاب نحو غرفة ابنتها التي يفترش مدخلها جسد (نبيل) الهالك، فسارت بها نحو غرفة نومها، تحاول حجب رؤيتها عنه قدر الإمكان، أخرجت من ملابسها الخاصة أكثر ما يلائم جسدها النحيل ثم قالت:

•البسي يا (فرحة).. مفيش وقت، لازم تمشي قبل ما حد ياخد باله.

•أمشي؟

سألت في خفوتٍ لترتدي الملابس في بطءٍ غير مدركة ما تخبرها به والدتها، فالمكان الوحيد الذي ستخرج إليه هو السجن، ومنه إلى

الإعدام.. قطع سوداوية توقعاتها صوت والدتها الحازم:

•هتخرجي من هنا على المطار، وهتفضلي لحد ما تلحقي طيارتك.

•طيارة ايه يا ماما؟ بقولك (شريف) طلقني.

•يتحرق (شريف).. هي الطيارة باسم أبوه؟! اسمعيني كويس يا (فرحة).. انتي هتطلعي على الطيارة دي بأي طريقة.

استدارت لتجذب حقيبتها، تخرج منها تذكرتها وجواز سفرها ثم فتحت خزانة ملابسها مخرجة بعض الأموال مؤكدة:

•ورقك كامل معاكي وفلوس النقطة هنا في الظرف، تروحي على شغلك وتأسسي حياة بـ (شريف) أو من غيره.

•وانتي يا ماما؟

•مالكيش دعوة بيا، لو بتحبيني بجد اسمعي الكلام، ما تخليهمش يكسروا قلبي عليكي لأن الموت عندي أهون يا (فرحة).. انتي هتسافري وهتكوني سعيدة عشان نفسك وعشاني يا (فرحة).. كل ضحكة من شفايفك هتطلع من قلبي أنا.

•وافرضي اتقبض عليا؟

سألتها في رعب، تكاد تعود لبكائها، فأمسكت والدتها كفيها لتقبلهما في حنوٍّ مؤكدة:

•مستحيل أخلي حد يعرف لحد ما اتأكد ان طيارتك في الهوا.

أجبرت عقلها على العمل من جديد للخروج من تلك المعضلة ثم نظرت

إلى عيني والدتها في حزنٍ قائلة:

•وانتي؟ أنا مش هاقبل انك تضحي ببقية عمرك عشاني!

•يا غبية، أنا ماليش عمر من غيرك، أنا السبب في اللي بيحصل ده، وأنا اللي هانهيه!

•هتنهيه ولا هتنهي نفسك؟!

هتفت مستنكرة، فهي لن تضحى بوالدتها حتى وإن كانت مذنبة، فأصرت (غزال) واعتصرت ذراعيها بين أصابعها قائلة:

•ما تخافيش، ده هيكون دفاع عن النفس، هو اتهجم عليا في بيتي، يعني مش هاخد فيه ساعة!

•لكن...

أوقفت (غزال) اعتراضها لتضمها في حضن أمومي، قد يكون الأخير، هامسة:

•مفيش لكن.. مفيش لكن يا ضنايا.

أجهشت (فرحة) بالبكاء متمتمة في خوفٍ وسط دموعها:

•أنا خايفة يا ماما.

•ما تخافيش يا (فرحة).. ربنا مش هيعاقبني فيكي، ربنا العدل مش هيعاقبني فيكي.

رددت في خفوت ثم أغمضت عينيها لتغرق بين ذراعي ابنتها حتى أجبرت نفسها على الابتعاد لتكمل في إصرارٍ قائلة:

•خدي الكيس ده معاكي، ارميه في حتة بعيدة أو من فوق الكورنيش لو تقدري، بعدها هتروحي على المطار تستني لحد الطيارة ما تطلع، الطيارة دي رجلك تكون فيها قبل (شريف) وإياكي يا (فرحة) تكلمي حد أو تعرفي حد بطلاقك، حتى لو حد اتصل بيكي بعد السفر يحكي عني وعن اللي حصل ما ترديش عليه، وما تمشيش ورا كلام حد غير كلام أمك، فهماني؟

أومأت (فرحة) كطفلةٍ تائهة، فقبلت والدتها جبينها وكل مكانٍ تصل إليه فوق وجهها البارد لخوفها حتى دفعتها عنها نحو الباب مردفة:

•لا إله إلا الله.

•محمد رسول الله.

•(فرحة).. اوعي تصدقي ان أمك باعت نفسها بمزاجها، ربنا عالم ان مش ده الذنب اللي بتعاقب عليه. ولا تندم على شيءٍ في حياتها أكثر من ارتكاب ذلك (الذنب).. تصرف متهور واحد منها، هز توبتها وكان السبب في أن يحل عليها الغضب واللعنة، نظرت إلى فتاتها الملائكية لتودعها هامسة:

•مع السلامة يا أغلى ما عندي.

همست كأنه اللقاء الأخير، فحاربت دموعها لتتمكن من تصوير أدق تفاصيلها وحفظها بالجمر داخل جدران قلبها.

•لو القضية مش دفاع عن النفس، هارجع ومش هاسيبك يا ماما.

قالت ثم خرجت مسرعة لتهبط الدرج دون أن تترك فرصة لوالدتها للمجادلة والاعتراض، كانت في هذه اللحظة مجرد طفلة تتبع تعليمات والدتها الصارمة، تركت خوفها يقودها ليتولى زمام أمورها لكنها تعلم أنه إذا فشل مخططهما ستعود لرفع الأذى عنها، وإن نجحت، فلهم لقاء قريب في مكانٍ بعيد عن عالمهم البشع هنا، مكان سيكون نواة لحياةٍ يملؤها الدفء.

شاهدتها (غزال) حين اختفت من أمامها في صمتٍ بعينين ممتلئتين بالدموع والقهر، جففتهما بأطراف أناملها أثناء تحركها نحو الداخل مغلقة الباب خلفها.

اختفى العالم في تلك اللحظة، ولم تعد قادرة على تذكر كيف تحركت ساقاها، وكيف انتهت جالسة فوق مقعد الصالون! فكل ما تتذكره أن جسدها قد خرج من لعنته تلقائيًّا حين دقت ساعة الحائط، الساعة الرابعة صباحًا.

حينها أجهشت بالبكاء والانهيار دون توقف لتشاهد جثة (نبيل) المستلقية، ترثي روحها وحبيبًا لم يكن لها يومًا، ظلت تبكي قرابة الساعة قبل أن تعزم على إنهاء مخططها، فاتجهت لإغلاق الأضواء كافة، وانتقلت بعدها لمواربة باب المنزل الخشبي، التقطت أنفاسًا متوالية ثم تحركت في صمتٍ لتترك بصمات أصابعها حول مقبض (المفك) وتطلق سراح عقلها أخيرًا لتخور قواها تاركةً لجسدها حرية

الجلوس أمام الجثة وسط الدماء.

*****

ابتسامة صغيرة ارتسمت فوق شفتيها متنهدة في راحةٍ، دلفت داخل العنبر، ربما الأمر الوحيد التي تندم عليه هو عدم وقوفها لتحية (أم طه) وابنتها (دعاء) عند خروجها من المحكمة لكنها لا تزال تشعر بالذنب تجاهها، فصوت صراخها المذعور يوم اكتشافها للحادث، لا يزال يدوي في أُذُنها ويُؤنب ضميرها، كانت تتمنى ضمها، لكنها قررت أن هذا أفضل، فلا فائدة من التعلق بروحٍ غير باقية.

لقد تجرد ذهنها تدريجيًّا من سوداوية القدر، فقد حان استعدادها لقضاء العقوبة استردادًا للتوبة.. أجل لقد أعلنت توبتها يومًا، لكنها كانت دائمة الانتظار للعقوبة، قد لا يكون العقاب سيئًا كما نصوره لكنه بالتأكيد ابتلاء من المولى لتطهير الروح من الآثام والخطايا التي اقترفتها في حق نفسها أولًا ثم في حق هؤلاء المحيطين بها، فلا بد للذهب أن ينصهر تحت جمر النار لتنقيته من الدنس.. وحتى إن تأجلت العقوبة وتأخر الابتلاء، فإنها دومًا مستعدة للركض إليه دون إبطاء حتى تلاقيه، وتفتح ذراعيها هاتين مستقبلة إياه بنفسٍ راضية، كان يقتلها الشعور بأن هذا القلب قد تجرع من سقام الوحل حتى تجشأ، ومزقته سيوف الإثم حتى لم يعد للنقاء مكان، ولن تُشفى جراح الفؤاد إلا بتعذيبه، فالعصيان اعوجاج يصيب الإنسان حتى

يغمرهُ اللّه توبة النفس.. قد يمهله الأعلى أو يحيطه بالعمى لكن أقسى درجات الابتلاء، أن يبتليك يا عبد بداء الفؤاد.

تمت بحمد الله

٢٠٢١/٢/٢٨

شكر خاص

لكل من ساهم في إخراج هذا العمل وخاصةً في الاستشارات القانونية:

محامي الاستئناف/ أ. أحمد مصطفى المعازي

محامي الاستئناف/ أ. نرمين أحمد

الأستاذ/ عمرو محمد العربي